عدنان السبيعي

الصحة النفسية
للأسرة والمجتمع
٥

الصحّة النفسيّة للمراهقين والشباب

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

١٥٥١٤
م ع م

بسم الله الرحمن الرحيم

الصحة النفسية للمراهقين والشباب

الصحة النفسية للمراهقين والشباب/ عدنان السبيعي. -
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨ . - ١٨٩ص؛ ١٧سم.
١- ١٥٥,٥ س ب ي ص ٢- العنوان ٣- السبيعي
مكتبة الأسد

ع- ١٩٩٨/٩/١٣٧٦

الصحة النفسية
للأسرة والمجتمع

٥

الصحة النفسية للمراهقين والشباب

عدنان السبيعي

الرقم الاصطلاحي: ١٢١٠,٠١٣
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-559-6
الرقم الموضوعي: ٦١٠
الموضوع: الطب
العنوان: الصحة النفسية للمراهقين والشباب
التأليف: عدنان السبيعي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٩٢ ص
قياس الصفحة: ١٢×١٧سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعـادة
١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م

ط١/١٤١٧هـ = ١٩٩٧م

﴿وإذا بلغَ الأطفالُ منكمُ الحلُمَ فليستأذنوا كما

استأذنَ الّذينَ مِنْ قبلهِمْ كذلك يُبيّنُ اللهُ

لكمْ آياتِهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾

سورة النّور- اية(٥٩)

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المحتوى	٥
تمهيد	٧
المفاهيم الأساسية	١٤
اكتشاف الذات	٢٣
أزمة المراهقة	٤٠
الفتى والمدرسة	٤٨
الفتى وأبواه (المراهقون وآباؤهم في الأسرة)	٦٨
الطاعة والتمرد	٧٥
حوافز السلوك (الثواب والعقاب)	٨٣
المراهقون والأخلاق	٩٤
المراهقون والصداقة	١٠٣
تكون المسؤولية	١٠٨

المراهق والعمل ١٢٥
انحرافات المراهقين ١٤٣
نمو الطاقات الروحية ١٦٦
خاتمة الكتاب ١٨١

الصحة النفسية للمراهقين والشباب

تمهيد

إن معظم الباحثين الذين كتبوا في موضوع المراهقة كانوا يتوجهون فيما يكتبون نحو طلبة علم النفس والتربية والطب النفسي والعضوي ، مستهدفين تعريفهم بخصائص المراهقة .

هذا شيء ممتاز ، ولكننا من جهتنا استهدفنا أموراً ثانية ، لقد حرصنا على أن نتوجه في كتابنا هذا صوب هدفين اثنين فنخاطب (في الأول) المراهقين أنفسهم ، ونخاطب (في الثاني) آباءهم وأمهاتهم .

● أما المراهقون فقد تركز اهتمامنا بهم كي نجعلهم يواجهون قضيتهم بأنفسهم ، وكي يساعدوا أنفسهم بأنفسهم فيزداد شعورهم بالذات ، ويتعرفوا إلى المشكلات التي تجابههم ، ويتمكنوا من

فهم أنفسهم فهماً مباشراً ، وينتقلوا من فهم أنفسهم إلى فهم العالم والناس الذين يحيطون بهم ويتمكنوا من التكيف الناجح معهم .

● وأما الآباء والأمهات فقد حرصنا على أن نبين لهم أن أبناءهم المراهقين يقفون على أبواب الرجولة (أو الأنوثة) ، وهذا يجعلهم يحتاجون إلى من يفهمهم ويوفر لهم مزيداً من العون والتشجيع وتأهيلهم للحياة المنتجة .

صديقي أيها الشاب : أنت تعلم والجميع يعلمون أنك لم تعد طفلاً ، أنت شاب بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، أنت تزداد وعياً لنفسك ، وتحرص على مكانتك وكرامتك ، وتطلب من الأعماق أن يحسن الكبار النظر إليك ويساعدوك على النضج والمبادهة والإقدام ، إن هذه أمور هامة ، ولكنها مُكلِفة وتقتضي الثمن ، فما من شيء هام يحصل عليه الناس إلا بثمن ، وإذا أنت سألتَ عن الثمن هنا قلتُ لك :

صديقي ● احرص على أن تعرف وتعي أسلوب نموك المستمر من سائر الجهات .

● تحرَّ بإصرار كي تصبح جديراً بأن تحمل اسم أبيك ووطنك .

● وطالع واسأل واستفهم « من أنت ، ومن أمتك » و « ما المطلوب منك » .

أما أنا فسأتولى مهمة تعريفك بالأمور هذه ، وإذن دعني أحدثك بعض الشيء عنها من خلال الصور التاريخية لأمتنا ، وللمنزلة التي ارتقى إليها المراهقون والشباب فيها .

● يقول التاريخ : إن رسول الله ﷺ أول بانٍ لصرح حضارتنا العالمية ، عقد لواء الإمارة في أول جيش استهلَّ به حركات الفتوح العظيمة فجعل الأمير القائد على هذا الجيش (أسامة) الشاب ، وهو لم يغادر سنه السابعة عشرة ، وجعل كبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان من جنده ... ياللشباب العظيم ..

● أنتَ تعلم جيداً من هو عمر بن الخطاب وتعي أهميته في بناء أمتنا وتوسيع أبعادها وإرساء قواعدها ، أتدري أنه كان

يجمع بين الفينة والفينة الشباب فيسترشد بآرائهم ويفيد من قوة بأسهم ومبادهتهم ؟ ، والآن اسأل نفسك وقل لها : لو كنتُ يومها في زمن عمر فهل ياتُرى سأُدعى معهم ؟؟ وهل سأكون جديراً بذلك ؟!.

● وإذا انتقلت إلى التاريخ المعاصر ، وكنت بين الذين يتتبعون الأخبار وما وراء الأخبار ، عرفت منزلة الشباب في حياتنا وعلمتَ أن الشباب هم وقود الثورات ونار التضحيات .

١ ـ فهم الذين أقلقوا الفرنسيين في ديار الشام وجعلوهم لا يرتاحون ولا يعرفون الهدوء أو القرار خلال يوم واحد .

٢ ـ إن الشباب هم الذين نجحوا في اقتلاع الوجود البريطاني من مصر وبورسعيد بعد تمكنهم فيها وبقائهم ما يزيد على مئة عام .

٣ ـ وأن معظم أفراد الثورة الجزائرية الحبيبة (ذات المليون ونصف شهيد) كانوا من الشباب دون الخامسة عشرة من العمر وفي مثل سنك .

٤ ـ وأن فتيان الحجارة في فلسطين قد كسبوا احترام الدنيا

وتقدير العالم ، وأصابوا المجتمع الإسرائيلي المسلّح بالهلع والذعر ، وما كانت في أيديهم إلا الحجارة !!.

والآن ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين ، نطالع الأوضاع السكانية في بلاد العرب المسلمين ، فنجد أن (٥٢ إلى ٥٥٪) من مجموع السكان هم من ذوي الأعمار التي تقل عن العشرين ، أي في مثل سنك ... عزيزي وسيشكل هذا العدد الكبير في المجتمعات العربية ـ على اختلافها ـ مشكلة ذات حدين متناقضين .

ـ فهذه الفئات الضخمة قد تصبح عبئاً لا يُحتمل ، إن ظلت الفعاليات الاقتصادية (وهي في معظمها استهلاكية) وظلت معها الأنشطة التعليمية والوجدانية ، بغير تأهيل حضاري مركّز ودون نمو الذات .

ـ وبالمقابل فإن هذه الفئات السكانية الغالية يمكن أن تكون نافذة تُطل على أبعاد المستقبل ، فتشرق في دنيا العرب والمسلمين آمالهم في تقرير حياتهم الناهضة وتثبيت دعائم الحضارة

العظيمة التي حملوها إلى الناس حيث كانوا « خير أمة أخرجتْ للناس »[1] تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله . وسيقتضي هذا وعياً يحررك ومَن حولك من الضعف وقتام العيش وظلمات الحياة ، وينقلك إلى مواطن العز بالعلم والثقافة والاقتصاد والفن .

ولا يحقق هذا إلا الشباب الصادقون الذين يمتلئون بالقوة والإقدام ، ويحلمون بالأمجاد والقيم ، ويتدربون التدريب المركز على التسلح بالعلم والعرفان والصناعة والفن ، فيفلحون في حل إشكالات العصر ، ويقيمون على الأرض ومن جديد مجتمع العدل والإحسان ، ويسعون لإنقاذ أمتهم من التخلف ، والبشرية من الزيغ والضلال .

أيها الشاب أنت لمثل هذا مدعو إلى أن تضاعف من

(١) يقرأ الزائرون بلاد الأندلس على باب جامع قرطبة الجملة الآتية :
« تقوم الدنيا على أربع : عقل الحكماء ، وعدل العظماء ، وصلوات الأبرار ، وإقدام الشجعان » ، هذا ما ورد في حضارتنا وهذا ما نهيب بجيلك أن يعيه ويمتلئ به ويحياه ، أعرفتَ مَن أنت ؟....

جهودك الآن ، وترتقي انطلاقاً من ذلك ، فتلتقي مع الملايين من لِداتك وزملائك ، وأهيب بك وأمتك على أن تفعل ذلك بإقدام دون تردد وهمة ووعي دون تراجع ، واسمح لي أن أقول مَن سيكون لأمتنا إذا ضعف أبناؤها أو توارى شبابها أو نسيها رجالها ونساؤها ؟؟.

المفاهيم الأساسية

صديقي أيها الشاب يقرأ كل إنسان ، وأنتَ تقرأ أيضاً كلماتٍ مثل البلوغ والمراهقة والشباب ، فيقع الواحد في حيرة ويسأل : هل هذه الألفاظ تعني شيئاً واحداً ؟... وإذا صح هذا فلماذا الإكثار من الكلمات ؟.. وإذا كانت تحتوي على فروق بينها فما هذه الفروق ؟... وكيف ولماذا وجدت هذه الفروق ؟؟..

للإجابة عن هذه الأسئلة نقول : إن هذه الألفاظ تدل على شيء واحد وتختص بسنٍّ واحدة ، لها ظروفها وطبيعتها الواحدة ، ولكنها تختلف عن بعضها من نواحٍ كثيرة هي : وجهات النظر أو الزوايا التي ينظر إليها ومن خلالها الباحثون .

● فإذا كنا ننظر إلى التغيرات الجسدية المحضة التي تتجلى في بنية المراهق وفيسيولوجيته ، كنا أمام البلوغ .

● وإذا كنا ننظر إلى التغيرات النفسية ، ونفتش عنها في سلوك المراهق وتصوراته وهمومه وسيكولوجيته ، كنا أمام المراهقة .

● وإذا كنا ننظر إلى التجمّع أو الجماعة التي تضم أفراد المراهقين من حيث إنهم يؤلفون جماعة أو طبقة لها خصائصها ومميزاتها كنا أمام الشباب .

وعلى هذا :

فالبلوغ (**Puberté**) : ينطوي على ما يطرأ على الجسم من تغيرات وتحولات نابعة من وصول الهورمونات أو المفرزات الجنسية إلى الدم ، والتي تفرزها الغدد التناسلية فتجعل الفتى (أو الفتاة) مستعداً لوظائف الإنجاب والإنسال . ويتجلى البلوغ بظهور ما يسمى بالاحتلام عند الذكور ، وبدء الطمث أو العادة الشهرية عند الإناث ، ويدور الاحتلام حول ميل الفتيان إلى الجنس الآخر على وجه الإجمال ، كما يدور الطمث على تكون البويضة لدى الفتيات .

عوامل البلوغ : يتكون البلوغ متأثراً بعوامل محددة أهمها : الانتماء إلى أحد الجنسين ، والصحة والتغذية والطقس .

ففيما يتعلق **بالانتماء الجنسي** يلاحظ العلماء أن الأنثى تصل إلى البلوغ قبل الذكر فتسبقه بنحو سنة أو أكثر[1] .

وفيما يتعلق **بالصحة والتغذية** ، فقد لاحظ العلماء أن الأصحاء الأسوياء الذين يتغذون جيداً يبلغون قبل ضعاف الصحة وسيئي التغذية .

أما عن دور **الطقس** فيلاحظ العلماء أن أفراد الجنسين في البلاد الباردة يتأخر بلوغهم عن نظرائهم في البلاد الدافئة .

(١) وفي هذا السبق حكمة إلهية عظيمة ، فالفتاة (التي ستُعهد إليها وظائف الحمل والأمومة) ، ينبغي أن تنضج وتتهيأ لهذه الوظيفة قبل وصول الفتى ، لوظيفة الإنسال ، ولو كان بلوغ الفتى يسبق بلوغ الفتاة ، فسيكون في هذا السبق شرور بلا حدود ، واضطراب خطير يتناول حياة الجنسين معاً ، وستجد الفتيات (الضعيفات وغير البالغات) نفسها معرضة لتحديات وإثارات يومية وعامة ، يقوم بها فتيان نضجت أجسامهم ، ولم تنضج مداركهم النضج الكافي ، فسبحان الله خالق الجنسين ومدبر حياتها بالحكمة البالغة .

المراهقة (L'adilescence) : ويُقصد بها مجموعة التغيرات النفسية (ذات الارتباط بالجسد) التي تتناول حياة الفتى والفتاة العقلية والعاطفية ، وهي تغيرات بليغة وواضحة يغلب عليها القلق والتساؤل حول المستقبل والشعور بشيء من الغرابة وتدور حول تكون الشخصية ، والدخول في عالم الرشد ، ويُظن أن لفظ المراهقة يتعلق بالإرهاق الذي يتميز به البالغون والذي يغلب فيه التعب وقد يكون في هذا الظن حق وقد لا يكون ..

الشباب (La jeunesse) : يقصد بهذا اللفظ المظهر الجماعي للمرحلة ويبدأ مع المراهقة والبلوغ ويتعاظم وينضج ويستمر في النمو حتى يبلغ مبلغ الرشد ، ويؤلف الشباب طبقة خاصة ذات سلوك ومميزات تميزها عن غيرها من طبقات المجتمع .

التغيرات الجنسية الثانوية : وهي التغيرات التي تميز بظهورها كل جنس عن الآخر ، فتضخم الصوت ، وظهور الشعر في الوجه والصدر يُشاهدان في أفراد الذكور البالغين ، أما رقة الصوت وتزايد الشحم تحت الجلد وميل الأعضاء إلى

التشكل الكروي فيشاهد كل هذا في أفراد الإناث البالغات ، وقد اصطلح الباحثون على تسمية هذه التغيرات (التي تميز الجنسين) بالتغيرات الجنسية الثانوية ، وهي التي إذا ظهرت أنشأت فوارق معظمها ظاهري ، وتؤكد حصول البلوغ ، وهي إنما تظهر فتَنهي تماثل أفراد الجنسين ، وتقارب ملامحها الذي كان قبل البلوغ .

فترة ما قبل المراهقة : عزيزي أيها الشاب ، سأتناول معك الوضع النفسي والصحي للفترة التي سبقت فترة بلوغك :

إنك الآن معجب ومزهو بشبابك ولا سيا بعد أن أنهيت فترة الطفولة ، وأقبلت على مرحلة النضج والشباب ، وقد تفكر في نفسك قائلاً : « مالنا وللماضي ننبشه ونستعيده » ؟ هذا صحيح وأنا أرجح أنك تمقت كل من يكلمك كطفل ، وتقول أيضاً : « أولا يرون أنني أصبحتُ بطول والدي ؟.. » أجل وقد تغدو أطول منه ، ومع ذلك دعني واسمح لي ولو من باب الذكرى أو باب التعرف على ماضٍ قريب أحدثك حديثاً فيه فائدة لك وللقارئين في علم النفس أيضاً :

ـ وأظن أنك إذا عدتَ بالذاكرة إلى ماضيك القريب في السنة العاشرة والحادية عشرة سترى :

● أنك كنتَ تعيش في استقرار تُحسد عليه ، وكان استقرارك هذا يشمل حياتك كلها ، جسمك ونفسيتك وأفكارك وتصوراتك واهتماماتك ، وعلاقاتك بكل من حولك وبتعبير آخر :

● كان التوازن يومذاك قانون حياتك وشعارها وسمَتها بآن واحد ، ولم يكن في حياتك تطور مفاجئ ولا قفزات ، فقد كنت آنذاك أقرب إلى الرضى والتوافق مع جميع الذين من حولك ومع نفسك .

● لم يكن تفكيرك يعتريه الشك أو يطرح الإشكالات ، بل كان كل شيء يجري وادعاً وبسيطاً ، كنت تميل بشكل واضح إلى الطبيعة فكنت تخلد إليها وحيداً ، وكانت البساتين ـ على طول العام ـ موضع نزهاتك وسيرك مع الأصدقاء . وكانت صداقاتك بريئة كل البراءة ، لا تعرف فيها التكلف ، كنت

تصدق كل ما يقال ، فلا تعرف التردد أو الكلام الداخلي الذي يتميز به تفكيرك الآن .

● أما الكذب ، والنفاق فكانا أبعد الأشياء عنك .

● ولم تكن تتعب ذهنك بالسؤال « من أنا » أو « لماذا أحيا » ولا بأسئلة أخرى مشابهة والآن ومع قدومك إلى البلوغ أو قدوم البلوغ إليك ، تغيّر كل شيء ... إن هذا شيء مشوق فلنشترك في بحثه .

صديقي ومع دخولك في (عالم المراهقة) لاحظت ولاحظ كل من حولك أن أموراً عديدة ظهرت ابتداءً من وزنك وطولك ، وانتهاء بمكانتك ، لم يكن جسدك وحده يتمدد بل وتفكيرك واهتماماتك تتركز .

وتنظيماً للبحث فسأتولى الحديث عن جسمك أولاً :

تغيرات عضوية : يلاحظ جميع من حولك أن جسمك يميل إلى النحافة أول الأمر ، وذلك لأن عظامك استطالت فسبقتْ عضلاتك ، هذا وإن لطول العظام عند المراهقين قصة

أو عدة قصص طريفة : إن زملاءك المراهقين يتحركون بأيديهم وأرجلهم حركات ينقصها التوازن غالباً ، ويعروها الاضطراب واحمرار الوجه ، فقد يكون أحدهم ضيفاً عند أحد أصدقائه ، فيُقدم هذا القهوة بالفناجين الصغيرة .

● وهنا يمدُّ المراهق يده ليتناول الفنجان ، وإذا به يمد ساعداً لم يتعود أن يقدّر استطالتها الكبيرة فيدفع بيده الصينية بما فيها ، ويصب القهوة على الأرض أو على المضيف ... ودون قصد طبعاً . أما الزميل فإنه يحمر ويصفر فلا يدري ماذا يقول وكيف يعتذر .

● ويهبط بعض المراهقين الدرج بطريقة تشعرنا أنهم يتجمهرون وهم مبتهجون لكن نزولهم الدرج (بأرجل خبّاطية) صاخبة تميزهم . إن هذا ما يحصل بالفعل ، فتدرك أنت ويدرك من حولك أن هذا النزول ما كان يتم بهذه الطريقة قبل سنوات .

● أما السرعة في قيادة السيارة وصهيل عجلاتها فإنه

يسترعي أسماع النـاس وأبصـارهم فتراهم يقولون « شبـاب !... » ويتحولون برؤوسهم .

● وهناك ما هو جدير بأن يُعرف بهذا الصدد ، فإنه مصدر تحول المراهق خلال البلوغ ، هو مـا يُسمى (بـالهورمونـات) أي مفرزات الغدد الصماء ، وأهم هذه الغدد ما يتعلق بالجهاز التناسلي وبغـدتي مـا فوق الكليتين ... ثم ينعكس أثر هـذه الهورمـونـات على مشاعر الفتى المراهق (بطـريقة مـا تزال مجهولـة) ، وهكـذا يحس المراهـق بميــل إلى الجنس الآخر ، ويُعبر عن هــذا الميــل بـاهتمامـات جـديـدة تطرأ عليـه مـع أحـلام قـد تبـدو غريبـة لصاحبها ، ولا عجب في ذلك ، فإن هذا يؤكد بـدايـة الرجولة والأنوثة ، ومـا يسمى بـالصفـات الجنسيـة الثـانويـة التي تميز كل جنس عن الجنس الآخر .

اكتشاف الذات

(بناء الشخصية)

صديقي الشاب لا بد أن تكون متشوقاً لمعرفة كيف تكونتْ شخصيتك ، فصُغتها وتهيأت لك ذاتُك المتميزة ، وها أنذا أحدثك عن ذلك . يتم للإنسان اكتشاف الذات في مرحلتين هما : مرحلة الطفولة ، ومرحلة الرجولة .

ففي المرحلة الأولى يكتشف الإنسان وهو ما يزال طفلاً ذاته العضوية ـ النفسية ، وفي المرحلة الثانية يكتشف المراهق والشاب ذاته النفسية الاجتماعية .

١ ـ مرحلة الطفولة :

يمر الطفل في الشعور بذاته بثلاثة مستويات :

- مستوى اللاتمايز .
- مستوى الأنا الجسدي .
- مستوى الأنا النفسي .

مستوى اللاتمايز : شبهه العالم النفسي (ڤالون) بالسّديم المتماوج ، يكون فيه الطفل متداخلاً مع الأشياء ، لا يفرق فيها بين عضو وآخر من أعضائه ، ولا بين جسمه والأشياء الخارجية فرجله ورجل الكرسي متماثلتان ، وتكون استجابات الطفل انعكاسية خالصة ، لا يتسرب إليها الشعور أو التميز إلا بقدر ضئيل . وتدوم هذه الحال خلال الشهور (٣ ـ ٤ ـ ٥) في أول حياته بعد الولادة .

مستوى الأنا الجسدي : تتجمع المواقف والاستجابات الجسدية وتنتظم فتؤلف كياناً مترابطاً فيشعر الطفل بتحركات جسمه العفوية (يمد يديه إلى أمه لتحمله) (ويسحب رجليه دون أن يدري لماذا) ، وهكذا يتعرف الطفل إلى جسمه بوصفه تابعاً له تحت تأثير الأمور الآتية :

أ ـ الجسم موضع لذّات وآلام ، فضربةٌ على رجل الطاولة لا تؤلمه ، أما رجله فتؤلمه إذا ضُربت .

ب ـ الجسم هو الشيء الذي تنتهي عند محيطه مقدرةُ الطفل على الحركة العفوية .

جـ ـ الجسم هو الشيء الذي تنتهي عنده الإحساسات اللمسية المزدوجة ، فإذا لمس الطفل بيده رجله ، فإنه يشعر أنه هو الذي يلمس وهو في الوقت نفسه الذي يتلقى الإحساس باللمس .

مستوى الأنا النفسي : ويقوم هذا المستوى على عاملين هامين : العامل الاجتماعي والعامل الذاتي المعنوي ، وهكذا تُطل الأنا الاجتماعية على الصغير منذ أن يشعر أنه واحد في أسرته ، فهو يندمج في حياة أخوته وأخواته ويمارس الأفعال قبل أن يدرك نفسه ثم يبدأ فيميز أمه وأباه عن إخوته تبعاً للخدمات التي تقدمها أمه وأبوه و ...

ولعل أهم هذه الأشياء التي تساعد على تكوين الأنا الاجتماعي النفسي ، الأمور التي يرى أنها مُلكاً له دون غيره ، فهذه اللعبة تخصه وهذه الأم أمه ، وهذا اسمه الذي يتكرر ويُنادى به ، ومعرفة الطفل « لما يملك » يسبق معرفته « أنه

مالك » فتكون شخصيته ممتزجة بالأشياء ومتأخرة عن إدراكه لها ، وهكذا فإن الطفل حينما يتصل بالآخرين يشاركهم في حركاتهم وألعابهم ، وهكذا هو يحاكي الآخرين فيما يقولونه ويفعلونه ، وكلما زادت الأفعال التي يقوم بمحاكاتها والأقوال التي يتلفظ بها ، تضاعفت فعالية الطفل ووجوه نشاطه .

واللغة تساعد بأسمائها وألفاظها في إسباغ التميز والفردية على الأشخاص والأشياء فينتقل ذهنه (الذي يتفتح) من الأشياء - إلى الأفكار والمعاني .

أما تخصيص الطفل باسم معين يُنادى به ، فيشعره بذاته التي ارتبطت بهذا الاسم الخاص ، كما يشعره بأنه شيء هام له اسم .

وأخيراً فإن التقاء رغبات الطفل بمطالب المجتمع واصطدامه بها ، وهي غريبة عنه وجديدة ، يؤدي إلى بروز ذاتيته الاجتماعية - النفسية ، وكما أن المقاومة المادية للأشياء تعمل على بروز الجسم ، فإن المقاومة الاجتماعية تعمل على بروز النفس .

ذلك لأن « الجهد » الذي يصرفه الطفل من أجل التفاهم مع الآخرين يمنحه تمايزاً واضحاً بينه وبين الآخرين ، كما أن استعلاء أو ارتقاء الطفل إلى حيث الجماعة ومحاولته التفلت من بعض جهاتها ، يرفعه بوضوح في قمم الفردية ، هذا وإن الفرد لا يستطيع أن يخرج عن المجتمع إلا مستنداً إلى ركائز (وهي فعلاً في معظمها) تقاوم الثقل الاجتماعي ، أي مستنداً إلى أهداف وغايات يريد تحقيقها وتتجاوز الجماعة ، وتبدو هذه الأهداف جذابة ساحرة وقوية غلابة ، حين يؤمن بها الفرد ويطلق عليها اسم المثُل العليا . وأن شخصية الطفل التي لم تبلغ ولم تصل إلى هذه المثُل لا تزال تحتاج إلى أشياء كثيرة لتبلغها ، وها أنت تراني أشرح لك ذلك ، وستشاهد معي أن المرء حين يختط نموذجاً له ويسعى إلى فكرة رفيعة وسامية ، يكون قد قطع الأشواط الهامة في بناء شعوره الذاتي أو شخصيته .

☆ ☆ ☆

صديقي الشاب : إنها قصة رائعة تلك التي تُحدثك عن

الرجولة ، كيف لا وهي الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب والمطلب الكبير الذي نتعاون على فهمه وإساغته .

٢ ـ مرحلة الرجولة :

إنك يا بني تبدأ الدخول في هذه المرحلة منذ أن تنجح في تحصيل أمور كثيرة مترابطة أهمها :

١ ـ النضج العاطفي (والانفعالي) .
٢ ـ تألق الطموحات .
٣ ـ بزوغ المثل الأعلى .

وحين يتحقق هذا لك فإنك ستتحول إلى أن تصبح « سيداً » بعد أن كنت مجرد كائن موجود يرى أنه لا يفيد ولا يستفيد .

١ ـ **النضج العاطفي** : ونراه عند الإنسان حين :

أ ـ يكون متحرراً من الميول والاتجاهات الطفولية كالأنانية والاتكال على الغير ، والخوف من تحمّل المسؤولية . كلنا يعرف أن غير الناضج يعد طفلاً مهما كبر وامتد به العمر .

ب ـ وحين يقبل النقد إذا وُجه إليه ، ويرضى به ، ويعرف كيف يدافع عن نفسه ، وحين يكتسب الاتزان في تعبيراته ، فلا يتشنج ولا يثور أو يضطرب ، لمجرد نكتة عارضة أو دعابة تُوجه إليه أو لمن حوله .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن وزن الرجل يُقاس بوزن الأشياء التي يترفع عنها فلا يضطرب بسببها .

جـ ـ وحين يكتسب القدرة على تأجيل المُتع العاجلة بمتع آجلة ، فالطالب في المرحلتين الثانوية أو الجامعية تتحرك فيه مطالبُ عاطفية وتجعله يفكر في الزواج ويقرر مصيره مبكراً ، ولكنه يُعد ناضجاً إذا قاوم عواطفه وفكّر وأدرك أن عليه أن يُعنى الآن بالجِد والاجتهاد أولاً ، حتى يقرر مصيره وينجح في مهنته التي لم يصل إليها بعد .

وعليه أن ينتظر ريثما تتهيأ ظروف حياته المادية ويكون قادراً على تحمل مستلزمات الزواج ، وفي مقابل هذا لنتصّور شاباً ترك نفسه دون تركيز ، وخضع لما يسمونه بالحب ، فكيف

سيكون شأنه ؟.. سيكون قطعاً مثل الفاكهة الفجة التي لا تُستساغ ويُصاب بالضرر آكلها ، وهكذا نرى هذا الشاب يتعثر في دراسته ويتخلف ويتراجع بسبب انشغاله بمواجهة قضايا مبكرة وصعوبات كان في غنًى عنها ، وقد نتجت هذه القضايا والصعوبات بسبب خضوعه لعامل واحد أو جزءٍ واحد فقط من أجزاء شخصيته كلها (وهو العاطفة) ، فلا عجب إذا وجدناه يضطرب في سيره المستقبلي وتوازنه فيندم على تسرعه وعدم تريّثه وسيطرة الجزء عنده على الكل .

٢ ـ **تألق الطموحات وتفتحها** : إن المراهق الموفق هو العاقل الذي ينمي في نفسه طموحه ، فيحيا من أجل قضيةٍ ويسعى لكي يضمن لنفسه المستقبل اللامع ، ويقوّي مركزه بين ذويه وقومه ، فيُجمع هؤلاء على احترامه وتقديره ، وينجح في التغلّب على الصعوبات ، ويؤكد وجوده بالثراء الذي يتمناه ويظهر في بيداء طموحه ، ربيعاً ناضراً مفعماً بالأمل .

● فإذا كان يحيا في أسرة فقيرة فهو يسعى ويطمح لتصبح الحياة في بيته ميسورة ومقبولة ، بل وغنيّة بكل ما يحب .

● وإذا ألفى نفسه في مجتمع جاهل ، راح يضاعف من همته من أجل مزيد من العلم والعمل لنفسه ولقومه .

● وإذا وجد قومه يخضعون لقوم آخرين يستبدون بهم ويمتصون خيراتهم ، فإنه يشرع ويتعاون مع مَن حوله ليعمل معهم من أجل إنقاذ جماعته ، ودعم وجودها وصد الأذى عنها .

صديقي أيها الشاب : لتعلم أن شاباً بلاطموح أشبه بشجرة ليس منها زهر ولا ثمر فلاتنفع لشيء ، أما الطامح الدؤوب من أجل توطيد طموحه ، فإنه لا يكتفي بأن ينال الثقة به ، بل تراه ينتفع بهذه الثقة في بناء حياة أكثر نشاطاً وتألقاً ، فيستمد من خالقه القوة والطاقة والبصيرة المستنيرة ﴿ اللهُ ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ [البقرة : ٢٥٧/٢] . وستكبر أيها الصديق وسترى بنفسك أن أطيب نعمةٍ ينعم بها المرء في حياته : هي أن يعيش خارج نفسه وهمومه ، فيصارع بالعقل والإيمان كل الهموم بهمته وينسى نفسه :

(في شيء يعمله) - (وشيء يحبه ويحلم به) - (وشيء يضيء ظلمات الحياة لمن حوله)

وستكون له من الطموح نتائج متعددة لعل أهمها نتيجتان : احتمال المتاعب ، واكتساب التفاؤل ، وإنك لتراه يحتمل المتاعب ولا تهمّه نفسه بل يسعى لإثراء حياة غيره وكشف المساوئ عنهم ، قيل لطبيب يفرط في السهر على المرضى ، إن طاقة الإنسان لها حدود ، فأجاب نعم إنها الطاقة التي يجب أن نتعدى حدودها .

والطامح بعد ذلك يحيا في تفاؤل مستمر مهما قست الظروف ، وتفاقمت الظلمات ، فهو لا يزيد بالظروف القاسية إلا قوة فوق قوة ، ولا تنال منه المتاعب ، إلا لتزيده إيماناً فوق إيمان ووثوقاً بعد وثوق .

٣ ـ **انبثاق المثل الأعلى :** إن الطموح النفسي عند الشاب يُترجم بقيمة عليا ، أو بمعنى من المعاني الرفيعة التي يتميز بها الإنسان ، ومن شأن هذا المعنى السامي أن يتجسد في نموذج معتبَر قيّم يحترمه الناس ، عامتّهم وخاصتهم ويسعون لينهجوا على نهجه ، ويتأثرون في الأفعال والأقوال والسلوك .

هذا وإن وظائف المثل الأعلى متعددة أهمها :

١ ـ أنه يحدد نوع الطموح ومستواه .

٢ ـ ويعيد بناء الشخصية على ضوء هذا المثل .

٣ ـ فيكون بمثابة قوة ذات جاذبية .

٤ ـ ويُلزم الناس على تقديره والتقرب منه .

٥ ـ ويتحقق المثل الأعلى في الناس على تفاوت ودرجات (بين كل فرد وآخر) .

٦ ـ ويصوغه كل فرد محاكاة لفرد آخر كالأب (إذا كان فذاً) أو العم أو الجد أو العالِم أو الرياضي أو القائد العسكري ... إلخ . ويتلو هذه المحاكاة قدر من الإبداع والابتكار .

٧ ـ ويصنع الفرد هذا النموذج أو يصل إليه من شخص نموذجي واحد ، أو عدة شخصيات ، وهكذا يتكون المثل الأعلى من مجموعة صفات فيستمد من فلان صفة ما ومن آخر صفة ثانية وهكذا ، ومن أجل إيضاح هذه الناحية نقول : كان أصحاب النبي ﷺ نماذج فذة فكان أبو بكر مثالاً للتقى والنقاء ، وكان

عمر مثالاً للرجل العادل الشجاع ، وكان عثمان مثالاً للسخي المنفق ، وكان عليّ رجل الحكمة والشجاعة وسعة الأفق ، وهكذا مضى المسلمون على أن يقتبسوا ما يرتقي بهم ويبني امتيازهم .

صديقي أيها الشاب : وكما كان المسلمون من بعد الخلفاء الراشدين يسترشدون ويقتبسون فينهج أحدهم نهج النبي وأصحابه ويعي أقوال صاحب الرسالة ووصاياه ، حين يقول : « أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتهم اهتديتم » . وحين كان الناس يفعلون وما ذكرت وشرحت ، كانوا عزاً لأمتهم ، وغنًى وثراء لحضارتهم ونماذج لمن يقرأ سيرتهم ، فإنني أهيب بك كإنسان يقبل على الرجولة أن يصنع رجولته على هدى ورشاد وقناعة وثبات .

وبعد هذا فاعلم أيها الحبيب أن المثل الأعلى لا يختلف فقط بين الأفراد ، بل يتنوع بنوع المجتمعات ، وهكذا يسيطر مثل أعلى في هذا المجتمع ومثل آخر في المجتمع الثاني والثالث والرابع وهكذا دواليك ... وإليك أسوق الإيضاح الآتي :

« اشتهر أهل أسبارطة من اليونانيين بتقديرهم للقوة والجسم القوي » .

« واشتهر أهل أثينا بتقديرهم للمعرفة والحوار الفكري » .

« واشتهر أهل روما القديمة بحبهم السيطرة » .

« وعُرف لدى عرب الجاهلية نموذج الفارس والشاعر ذي النسب » .

« كما عُرف المسلمون بإيثارهم وتقديرهم لطالب العلم والتقي المحب للمعرفة وخشية الله » .

« واشتهر أهل النهضة في أوربا ومن أتى بعدهم بالاهتمام بتربية المستعمِر الذي يبدأ بالتبشير وينتهي بالحرب والفتوح » .

« واشتهر أهل العالم الجديد الأمريكي بتقديرهم لراعي البقر وأسلوبه » .

فاختر يا صديقي ما يروق لك من هذه النماذج ، وسترى أن كل إنسان حيث يضع نفسه ، ويبني ذاته ، وأن همة الرجل تقاس بمقدار اهتمامه وبنوع هذا الاهتمام .

وإليك بعض النماذج التي صورها كتاب الله تعالى بقوله : ﴿ ضرب اللهُ مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه رزقاً حسناً فهو ينفقُ منهُ سرّاً وجهراً هل يَستَوُونَ ؟ الحمدُ للهِ بل أكْثَرُهُم لا يعلَمُونَ ﴾ [النحل : ١٦/٧٥] .

ويقول : ﴿ ضرب اللهُ مثلاً رجلين أحدهما أبكَمُ لاَ يقدِرُ عَلى شيءٍ وهُو كَلٌّ على مَولاهُ أينَما يُوجِّهْهُ لا يأْتِ بخيرٍ هَل يستَوي هُوَ وَمَن يأْمُرُ بالعدلِ وهُو على صِراطٍ مستَقيمٍ ﴾ [النحل : ١٦/٧٦] .

صديقي أيها الشاب عالجنا حتى الآن المثل الأعلى المتمثل في شخصية الإنسان :

١ ـ ففي مجال الأعمال نجد أنواعاً متنوعة :

أ ـ ففي مجال الأعمال نجد أنواعاً متنوعة لكل اختصاص مهني ، فهناك الطبيب العام ، وطبيب الأسرة ، وطبيب الأمراض العصبية والجلدية والعظمية ... إلخ .

والموفق هو الذي اهتدى إلى المهنة التي تشبع ميوله وتغذي

اهتماماته وتحقق طموحاته ، والمهم هو الإتقان فيما يعمل الإنسان وليس مجرد العمل .

ب ـ وهناك الهوايات التي لا يُقصد منها الإنتاج والمنفعة المادية ، وإنما يقتصر دورها على إشباع الإنسان والارتقاء به أو إمتاعه .

جـ ـ وقد تعددت جوانب الإنسان وتنوعت اهتماماته في عصرنا الحاضر فغدا محتاجاً لمن يرشده ليحسن الاختيار والاختصاص .

د ـ وأدى تزايد أوقات الفراغ إلى أن يتجاوز الإنسان السوي اختصاصه فلا يكتفي بأن يكون مهندساً وحسب ، بل يكون مؤسساً لجمعية حماية البيئة مثلاً وعضواً هاماً في جماعة المعوقين ، ومشاركاً في جماعة الرحلات والسياحة ... مساهماً في جمعية بناء المساكن وتعليم الأميين أو جماعة المعونة الإنسانية والبر والإحسان ... إلخ .

والمهم في كل ما ذكرنا أن يكون المرء نافعاً ومفيداً بصدق ،

يتابع دراساته وينمي تحصيله ولا يقف عند حدّ ، ويكون إنساناً فذاً في تقديم الخدمات وتعليم الجاهلين ، وإرشاد من يحتاجون إلى الإرشاد .

☆ ☆ ☆

أخي الشاب : أظنك تسعى جاداً لتوجيه طموحاتك وتوظيف مثلك العليا ، فإذا حققت هذا بلغت درجة السيادة .

والسيادة : هي اتجاه كلي للشخصية وليست مجرد صفة يتصف بها الإنسان ، إنها أرفع درجة تجعل المرء سيداً لنفسه وسيداً في قومه .

أما سيادة النفس : وتظهر في ضبط الانفعالات والسيطرة على النوازع والشهوات كما تظهر في العفة (في العاطفة) ، والأمانة (في العقل) ، والصدق (في القول) ، والشجاعة (في مجابهة الانحراف) .

وأما السيادة في القوم فتقتضي أموراً كثيرة وأفعالاً واتجاهات :

- فيحس ويدرك مشكلات أمته ويعمل على حلها .
- ويملأ أوقاته كلها بالجد والدأب .
- ويحلم بأمجاد أمته ويكرّس نفسه لخدمتها والارتقاء بها .
- ويعي الأخطار التي تترصد أمته ، فيقلق من أجل مجابهتها ودفع عدوانها .
- فلا يحيا داخل نفسه ، بل يحيا داخل قومه .
- ويظل يعمل ويناضل وهو متيقن : أن علينا أن نتألم أولاً ، ثم نعتاد تلك الكرامة التي نصنعها لأنفسنا بالجد والجهد .

أزمة المراهقة[1]

كل إنسان يمر في حياته بأزمة بل بأزمات وما أكثرها ، حتى قال أحدهم : إن الإنسان كائن أزمات ، هذا صحيح ولكن ، الصحيح أيضاً أنَّ لكل أزمة حلولها ، وهذه الحلول تجعل الحياة حلوة وتؤدي إلى ثراء الخبرات وازدهار المشاعر أحياناً ، وبوسعنا أن نتخيل كيف ستكون الحياة بلا صعوبات وتأزمات ؟... قطعاً ستكون بلهاء بلقاء غير ذات لون وفارغة من المعنى وصحراء محرقة .

---

(١) لا نتناول في بحثنا هذا الأزمات الشخصية التي قد تطرأ في حياة مراهق أو إنسان ما ، مثل التعرض لإصابة مرضية أو مصيبة اقتصادية ، أو مالية ، أو مثل فقدان عزيز غال آلمه واشتد أساه ... أو إلخ . فهي لا تدخل في حسابنا ، بسبب خصوصيتها ، إنما الذي يهمنا في بحث أزمة المراهقة الإشكالات العامة التي تحيط بالمراهقين على وجه العموم ، وتنجم عن المرحلة التي يمر بها هو ومعظم المراهقين ، فهذه هي الأمور التي تهمنا هنا .

المهم يا صديقي أن الأزمة تـأتي إلى الإنسـان ، فيـأتي معهـا التفكير فيها وبحلها فسبحانك يا رب ، إن كل أزمة تثير الدوافع وتحرّك المعـاني وتقلّب التصـورات ، وبـوسعنـا أن نقـول : إن الأزمات محك للرجال ، وإغناء لمستقبل الأجيال .

صديقي ، أنت الآن تمر بأزمة خاصـة بـك وبكل مراهق ، ويمكنك أن تسـأل مَن صنع هـذه الأزمـة ؟ وكيف تكونت ؟؟ وها أنت تراني أحدثك عن ذلك فأقول :

إن التغيرات المتلاحقـة للبنيـة الجسـديـة للمراهقين وتـوالي الوظائف الفيزيولوجية والمواقف الاجتماعية التي تحيط بهم ، هذه التغيرات تسبب الكثير من التســـاؤل وتثير ضروب الاهتمام والقلق . ويبدأ هذا التساؤل بسيطـاً أول الأمر ثم يشتـد ويقوى ويحتل الساحة الشعورية لديهم ، ويتجلى في مظاهر عديدة من حياتهم ، وتحركه دوافع متعددة في اتجاهات متفاوتة .

وهكـذا نجـد أن الـدوافـع المـذكـورة هـذه قـد ينـالهـا « الإحباط » وتتعرض لمقاومات متنوعة ، فتصنع أنواعاً من الهمّ

وأشكالاً من التشوقات ، وهي كلها جديدة عليك لم تكن تواجهها في طفولتك ، فترى نفسك ياعزيزي لا تدري كيف تتصرف أو ماذا تفعل ، أما أسرتك التي من حولك فقلما تشاركك الهموم ، لأنها قد لا تفهمك وتشغلها شواغل كثيرة ... والمهم في هذا كله أن أزمات المراهقة قد تتخذ طابع الصراع ، بينك وبين نفسك ، وبينك وبين المجتمع من حولك ، فلا تقلق ، ومن الواضح أن معرفتك هذه الصراعات وتوقعك حدوثها ، يساعدان على مواجهتها والتخفيف من حدتها .

أسباب الصراع

وهي كثيرة وأهمها :

١ ـ صراع بين مخلفات الطفولة ومقتضيات النمو ، إنك لم تعد طفلاً ولكنك لم تصبح رجلاً بعد .

٢ ـ صراع بين ميلك إلى الاستقلال بذاتك وتعلقك بذويك ، بين طموحاتك وإمكانياتك .

٣ ـ صراع بين الدافع إلى الجنس (الذي يتفتح فيك) وضوابط المجتمع (التي تحدق بك) .

٤ ـ صراع ديني بين ما كنت تقبله دون نقاش ، وما غدوت فيه محتاجاً إلى التفهم في إطار القناعة .

٥ ـ صراع بين التهذيب الأخلاقي الذي نشأت عليه والميل إلى الخصام بل التمرد في بعض الأحيان .

صور الصراع

تتخذ الأزمة عند المراهقين صوراً متفاوتة أهمها :

أ ـ شعور بالوجَل والتوقف وبعض التردد والتراجع أحياناً .

ب ـ ذبذبات مزاجية ، وهكذا يعيش المراهق بين الإقدام والإحجام ، وبين التماسك والميوعة ، وبين الروية والطيش ، أو بين السعة في الرؤية وضيق النظر .

جـ ـ يتميز الموقف الشخصي الذي يميز مراهقاً عن آخر فيتأثر بوضعه الطفولي السابق ومواقف أسرته منه ، وترتيبه بين إخوته ، ونوع التربية التي تلقّاها ... إلخ .

د ـ وهناك التمرد ، ويمكن أن يكون على درجات كبيرة ،

فهناك المشاكسة التي تظهر من فتى يحتاج إلى إثبات ذاته ، وهناك الثورة على بعض نواحي المجتمع ، أو على المجتمع ككل ، وهناك تمرد في الأسرة وتمرد في المدرسة أو العمل . وواضح أن الأسرة في الحضارة الغربية تواجه المراهق بأسلوب يغاير ما تواجهه به في بلادنا ، ولا يتعلق هذا بمدى الحرية التي يمنحها المجتمع هنا أو هناك ، وإنما بمدى تماسك الأسرة ، فالأسرة في حضارتنا الإسلامية والعربية تظل متماسكة ، ويظل ابن الأسرة مرتبطاً ومتعلقاً بنهج الأسرة التي أنجبته ولا ينفك عنها ، ويظل الفتيان يحترمون ويوقرون آباءهم وأمهاتهم مهما بلغت أعمارهم وأحوالهم ، ويظل المسنون ينالون التقدير والخدمة من أبنائهم وبناتهم . وعلى أيّ حال فإن المشهور عندنا أن المراهق يمر بمرحلة (التكليف) ويقابل التكليف عندنا (التمرد) عند شبابهم .

وليس التكليف مفهوماً تعبدياً فقط ، وإنما هو مفهوم اجتماعي . فالمراهق الشاب عندنا قلما يثور على أسرته أو يتنكر لها ولقيمها ، وخاصة عندما تكون الأسرة ملتزمة بالخلق والحق ،

وملتزمة بالشرع ، فإنها تسلك مع أبنائها المراهقين سلوك مَن تعهد وبذل وربّى ليجد في سن المراهقة وفاءً للدَيْن والفضل والمحبة التي قدمتها لأولادها وبناتها منذ ولادتهم حتى أصبحوا كباراً وراشدين . وهكذا يشعر المراهق عندنا أنه الآن بسبيل أن يفي ويخدم مَن خدموه وتعبوا من أجله ، وهو يعلم أنه يمر بمرحلة التكليف لا مرحلة التمرد أو التنكر للمعروف ، وهو يفتخر بمواقفه هذه ، ولا فضل له فيها ، وخلافاً لهذا المراهق نجد أقلة من الفتيان الذين يميلون إلى التحلل من وفاء الدين لآبائهم ، ويجنحون إلى الإنكار الجميل الذي قدَّمته أسرهم منذ أوائل الطفولة ، وبعض هؤلاء الآبقين قد تعرّف ـ غالباً ـ على جماعة خارجة عن الأخلاق أو القانون أو الدين ، فأحسَّ أن منزلته في وسط هذه الجماعة قد تأكدت وأنه ينال فيها التقدير والأهمية أكثر مما يناله في أسرته ، وفي كثير من الأحيان تكون الأسرة هي المسؤولة عن مصير هؤلاء ، فلم تحسن إليهم الإحسان الكافي في طفولتهم أو أقامت علاقاتها مع أولادها على أساس التفضيل والتمييز .

ومن المؤسف جداً أننا نرى من حولنا آباء فضلاء بل وممتازين في العلم والدين ، قد أنجبوا أولاداً متمردين أو ملحدين . وغالباً ما يكون السبب أن الآباء لم يعرفوا أو لعلهم لم يدروا على الرغم من منزلتهم في العلم أن من واجب الآباء أن ينزلوا إلى مستوى أطفالهم فلم يصادقوهم فتصيدهم الشيطان ودفع بهم إلى التمرد والاستهتار بالدين ، وهذه المنزلة هي أسوأ منزلة يمكن تصورها من منازل أزمات المراهقة .

أرأيت أيها الصديق كم تكون المراهقة عندنا عظيمة وبنّاءة ؟...

صديقي أيها الشاب

للمراهقة أزمتها بل أزماتها كما شاهدنا ، فهذا ثابت ومؤكد ، والمهم على الدوام أن يتجاوز الفتى أزماته وينتصر عليها ، وأعلى النصر وأجدره أن تنتصر على نفسك ، وتجعل نفسك أكبر من نفسك .

قالوا : من استوى يوماه فهو مغبون .

ومن كان أمسه خيراً من يومه فهو محروم .
ومن طال حرمانه أضاع الرؤية وأضاع نفسه ،
وسار نحو الخسران .

وقالوا : ليس المهم دوماً أن تكسب
وإنما المهم أن تحوّل الخسارة إلى كسب .

أظنك توافق على هذين القولين ، فلنحمد الله أن خلقنا وأنعم علينا بنعم عظيمة .

الفتى والمدرسة

يظن الكثيرون أن المدرسة مكان للتعليم وكسب المعلومات فقط وهذا كلام حق ، لكنه لا يغطي وظائف المدرسة كلها ، بل لعله لا يغطي إلا جزءاً يسيراً من مهامها ووظائفها . ومن أجل معرفة وظائف المدرسة نوضح ما يأتي :

أولاً ـ المدرسة لا تعلّم وإنما التلميذ يتعلم أن المدرسة مهما ارتقت وارتقى شأنها ، فإنها تعلّم بمقدار ما يرغب الفتى أن يتعلم وما يستطيع ، وهكذا فهناك في كل تعلّم يحصّله المتعلم أمران متلازمان يرتبط كل منهما بالآخر : الرغبة في التعلم ، والقدرة أو الاستطاعة على التعلم .

وما لم يجتمع الأمران ويتكاملاً فلن يكون هناك تعلّم ولا تعليم ، لأن أقوى المعلمين وأقدرهم يظل عاجزاً عن تعليم حقيقة واحدة أو حتى كلمة واحدة لمن لا يرغب أو لا يستطيع .

ثانياً ـ تتحدد مهمة المدرسة **بالنجاح في شهية الطفل للتعليم** إن الإنسان هو الغاية من المدرسة وليست مناهج المدرسة وبرامجها وكتبها ، ومافيها من الصفوف والباحات إلا وسائل لتحقيق هذا الغرض ، ولهذا قيل المدرسة للطفل وليس الطفل للمدرسة .

ثالثاً ـ وحين نقول الطفل فإنما نعني كيانه كله ، أي قدراته الجسدية والنفسية والاجتماعية ، وبعبارة أوضح نقول : **تُفتح المدارس من أجل تكوين الأجيال وتربيتها .**

وقد قيل في تعريف التربية أقوال أهمها :

- التربية هي إعداد الإنسان كي يحيا حياة كاملة .
- هي مجموعة الوسائل والأساليب التي يكوّن فيها العقل عقلاً آخر .
- هي مجموعة العمليات الهادفة إلى إشاعة العلم والعمل .
- هي رعاية النمو للفرد والتقدم للأجيال .

تحليل ومناقشة :

١ ـ يطلب التعريف الأول من المدرسة أن تصنع الحياة الكاملة ، فهذا التعريف لا يخلو من المبالغة ، والحياة الكاملة تصنعها وتهيؤها جهات ومؤسسات عديدة تتخطى المدرسة وحتى الأسرة ، هذا إذا كان على الأرض شيء كامل .

٢ ـ في التعريف الثاني ادعاء ، والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع ـ مهما بلغ أو بلغت طاقته ـ أن يكوّن عقلاً آخر ، وحتى الأنبياء لا يدّعون أنهم يكونون العقول أو النفوس ، إنما يستطيعون أن يوقظوا الفطرة الراقدة .

٣ ـ وفي التعريف الثالث توجه نحو اكتساب المعرفة وتدريب على العمل ، والحق أن اكتساب المعرفة والعمل ليس إلا وسيلة لغايات أكبر تتمثل في تكوين الشخصيات وتوجيهها صوب الحياة النافعة ، والكشف عن مواطن الخير وتذوق الجمال والإيمان بالله العظيم .

٤ ـ ولعل التعريف الرابع يكون أدنى إلى الحق ، لأنه

يوضح أن المربي لا يصنع العقول أو الأجيال بل يرعاها ، ويسعى لتفتُحها كما يتفتح الزهر في الحقول ، إن عمل المزارع يقوم على توفير شروط الإنبات ، وإتاحة الفرص للنبات كي ينمو ويزدهر .

■ ـ وهكذا تتركز وظائف المدرسة على رعاية كل ما يخص عالم الأطفال ، أجسامهم ونفسياتهم ، وقدراتهم العقلية والاجتماعية والروحية ، ويمكننا أن نختزل هذه الوظائف بكلمة واحدة هي التذوق .

ونقصد بالتذوق الولع والتقدير والإقبال ، قالوا : « ليس المهم أن نحيا الحياة ، بل أن نتذوقها » ، وهكذا لا يطلب من المدرسة تخريج علماء وحسب بل تخريج محبين للعلم ومولعين بنموه . إن حب العلم ومتابعة الجهود لتحصيله والثقة به ... هذه الأمور تسير نحو أهداف قيّمة . أو ما سمي بالقيم المثلى . إنها (الحق والخير والجمال والقداسة) .

فلنوضح هذه القيم وما يستطيع الأطفال أن يتعاملوا معها بالذوق أو التذوق .

تذوق الحق

لا يطلب من المدرسة الابتدائية التعرف على جوهر الحق وروعته ومصداقية الحق ، وإنما يطلب منها أن تساعد تلاميذها كي يستمتعوا في طلب الحق أو العلم ، والتمييز بين الحق والباطل ، ويتم هذا التمييز على درجات أبسطها امتلاك الروح العلمية ، والروح العلمية أهم من العلم نفسه (في هذه المرحلة) ، لأن التلاميذ قد لا يدركون حقائق العلم ولكنهم يستطيعون أن يحبوها ويفهموا بعض أسرارها ، ويسعون في أيامهم المقبلة لمتابعة الجهود العظيمة التي تصنعها وتكتشفها . وفي الآونة الأخيرة من زماننا ارتقى العلم التجريبي وتقدم تقدماً كبيراً لا ينبغي أن تكون المدرسة نائية عنه أو غافلة ، واتخذ العلم الحديث مسارين اثنين :

١ ـ توجه أولهما صوب عالم الصغائر Microcosme (في مجالي الذرة في الفيزياء ، والخلية في البيولوجيا) .

٢ ـ توجه ثانيهما صوب العالم الأكبر Macrocosme (في مجالي الفضاء وارتياد القمر فالكواكب) .

وبالطبع فإن مهمة المدرسة لا تتطرق إلى الشرح والتفسير النظري للدراسات في العالمين المذكورين . ولكنها (أي المدرسة الابتدائية) تعرّف من بعيد وتُلمح إلى الطاقة الكبيرة التي تفجرت من جراء تحطيم الذرة . وإلى المستجدات في موضوعات تحليل الخلية والاستنساخ النباتي والحيواني ، فتقدّم هذا كله بأسلوب جذاب يؤدي إلى أن يتذوق التلاميذ ذلك كله ، ويتوقون إلى متابعة الدراسة العلمية في المستقبل .

تذوق الخير

لا يكفي أن توضح المدرسة معاني الخير لأطفالها بل لا بد أن يكون وجودها خيّراً بالذات فتكون الحياة الاجتماعية فيها فاضلة ، وهكذا تكون المدرسة المتميزة مفضلة ومطلوبة لأنها تكون مصدر إشعاع مفعم بالخير ، وبالطبع لا يطلب في هذه المدرسة التعريف بالنظريات الأخلاقية وإنما يطلب منها أن تكون بمثابة النور ، النور الذي إذا أضاء ما حوله نمت الفضيلة عند التلاميذ وتعاظم الشعور بالمسؤولية ، كما تنمو النباتات وتتفتح أكمامها بفعل الشمس وحرارتها .

وإذن فعلى المعلمين واجبات كبيرة تنطلق من أن يكونوا بمثابة القدوة ، أو النماذج التي تحتذى لأن الأطفال يتأثرون بأحوال قدوتهم أكثر مما يتأثرون بالأقوال والنصائح ، وما لم يكن المعلمون جديرين بأن يكونوا القدوة ، فإن عليهم أن ينأوا عن التعليم ويفتشوا عن أرزاقهم بعيداً عن المدارس . هذا ومن أجل أن تتحقق أهداف الخير الأخلاقي ينبغي أن تُنتهز كل فرصة تسنح في محيط التعليم . ويرى بعض علماء الأخلاق أن الأخلاق قلما تكتسب بالنصائح والمواعظ بل يكتسبها الناس عن طريق استغلال الفرص ، وما أكثر الفرص السانحة وأجلّها .

هذا تلميذ يحاول أن يختلس شيئاً في الصف ، إن المعلم المتقن يدير الأمور باللباقة كي يتضح أن عملية الاختلاس (مهما كانت بسيطة) فإنها مخزية ومذلة . وطريقها مسدود ، وذاك تلميذ يُعرف بالكذب ، المعلمة اللبيبة توجه أسلوبها في تفهم أسباب الكذب وكي تجعل المجموعة تدرك أن الكذب كالسرقة ، فالسرقة اختلاس الأشياء ، والكذب اختلاس المعاني وكلاهما مرفوض .

التذوق الفني

كان أفلاطون منذ القديم يُصر على أن تكون الموسيقى والفنون الجميلة جزءاً من التعليم منذ أوائل الطفولة الباكرة .

وكان يرى أن دوام الاستماع إلى الموسيقى من شأنه أن يترك في نفس المستمع خصائص الموسيقى ، وأهمها التناسق الحلو والانسجام الممتع الذي يسود عالم الأصوات .

ـ فيصل التلميذ إلى إدراك ما بين الأجزاء الصوتية من تناغم وجمال .

ـ وإلى إدراك الوحدة الشاملة التي تضم الأجزاء المنسقة في كلٍ واحد شامل .

ولو أن أفلاطون كان يعيش في زماننا لما استساغ أو قبل أصوات الضجيج والصخب . والتي تسمى بالـ (Jaz) وقطعاً فإنه سيرفضها جملة وتفصيلاً وأداءً وسَمَاعاً .

أتعلم يا صديقي أن جذور الـ jaz بدائية ؟؟... وبالمناسبة فقد كشفت دراسة الجنين في بطن أمه ، عن طريق التنظير

فأبانت أن الجنين يبدي الانزعاج منذ الشهر الخامس من أمرين اثنين بوجهٍ خاص :

ـ حين تدخّن أمه .

ـ أو تستمع إلى الموسيقى الصاخبة أو الضجيج الصاخب ...

يا الله مَن علَّم الجنين هذا .

الصحة النفسية والفن

تتسرب التربية الفنية إلى شخصية الأطفال بكل ما فيها من نواح كثيرة أهمها :

١ ـ انتقال أثر الاستمتاع إلى تكون واكتساب المشاعر الجمالية الأخلاقية .

٢ ـ تكون الميل إلى التناسق حيثما كان في الطبيعة أو في داخل الإنسان .

٣ ـ اكتساب التفاهم والتناغم الاجتماعيين وتطرية العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد ، والمرونة بين مختلف الشعوب .

٤ ـ اكتساب القدرة على إدراك عظمة الخالق بطريق

مشاهدة الجمال في الوجود كله وفي دخيلة الإنسان ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : ٢١/٥١] .

هذا ما يكون من نتائج الموسيقى بوجهٍ خاص وما يخص بقية الفنون لا يقل عن ذلك . لقد قيل : إن العمارة موسيقا حجرية ، وفنون الرسم والشعر هي فنون مميّزة لنفسية كل شعب . انظر إلى الرسوم الهندسية العظيمة في الأندلس تجد أن الحضارة الإسلامية لم تغادر الأندلس (وإن كان قد غادرها المسلمون) وتأمل في الرسوم (القائمة على الخطوط والمساحات) في القصور وصور الحدائق بل المساجد التي خلفها أجدادنا هناك ، تشعر بأنك تواجه تفكير أجدادنا فتحيا معهم حيث تنمو دخيلتك ، وتتعاظم صور الذوق عندك ... فتكون الفنون عاملاً كبيراً من عوامل إحياء التراث والحفاظ عليه . ولا يكون إحياء التراث بأن نقيم له هيكلاً نستمتع بالاسترخاء في ظلاله ، وإنما يكون بأن نتشرب الروح التي قام عليها التراث ونوقظ في أنفسنا مشاعر أجدادنا الرائعة وأحاسيسهم البديعة . وإذا تمعنت

في آيـات الله تُتلى أمـامـك بصـورهـا الفنيـة واللفظيـة المعجـزة وجـدت نفسـك تحيـا في ذلـك النقـاء والصفـاء وجمـال الألفـاظ وبلاغة التراكيب فتُحس وكأن آيات الله تُنزل الساعـة ، إن هـذا أرفع ما في الفن في حضارتنا .

الصحة النفسية وتذوق القداسة

أُثر عن سيدنا علي بن أبي طالب أنه قال :

خلق الله تعالى الملائكة عقلاً بلا شهوة .

وخلق البهائم شهوة بلا عقل .

وخلق الإنسان بالعقل والشهوة .

فـإذا غلَّب الإنسـان عقلـه على شهوتـه كان أعلى من الملاك (الذي لا يشتهي) .

وإذا غلَّب شهـوتـه على عقلـه كان أدنى وأحـط من البهيمـة (التي لا تعقل) .

☆ ☆ ☆

أخي أيهـا المعلم تـأمَّل فيما أحـدثـك فيـه ، تشبعْ وارتو بمـا

أقدمه لك من الخبرات والمعـاني وتمثلهـا في سرك وجهرك . واسع مـا استطعت أن تسرّب إلى أطفـالـك شعـاعـة أو إشعـاعـات أو نفحـات (سمّهـا مـا شئت) ، واسمح لي أن أبـدي مـا أشعر بـه وما أراه بهذا الصدد :

إذا تهيأتْ لك واجتمعت لديك خبراتك وأذواقـك فـالتقيت مـع الحـق الصّراح والخير المُتـاح ، والفن الـدقيـق ، وكنت هنيّ النفس رضي الطبع أنيساً مع أهلك وذويك محسنـاً إلى والـديـك ومن في جـوارك ، وإذا كنت تستقبـل الصبـاح بـالتسبيـح لله وتستقبل المساء بالتمجيد له ، وإذا كنت تحب رؤيـة الكمـال فيما خلق الله ، والجمال في اتساق المخلوقـات ، إذا تهيـأ لـك أن تلتقي بالأنس في الغابات وتشهـد الجلال في الجبـال ، إذا رأيت نفسـك كبيراً كالبحر وأنت أمـام البحر ، ولاحظت الـدقـة في تعـاقب الليل والنهار والشهور والفصول ..

إذا أدركت أن كل شيء يسبح الله بأسلوبه وما انطبع عليـه بفطرته ، وتأكدت أنك مخلوق للعظائم لا للتوافـه ، وإذا عرفت

أن ابن آدم خطّاء فأصبحت تميل إلى السماح والعفو ، وإذا رأيت نفسك في منجّى من كل تسلُط وعدوان وتعجرف وخنوع .

إذا تهيأ كل ذلك مع عشرات أو مئات الأمور التي لم أشر إليها وأفاتحك بها . أصبحت قادراً على أن تفهم الله وتدنو منه وتحبه وتشكره أنْ آثرك عن كثير من مخلوقاته ، وأنشأك على الكرامة ونبل المقاصد ، فأصبحت تفهم كيف يكون الإنسان خليفة الله في الأرض ، يحمل الأمانة ، وغدوت مستعداً لأن تكون من عِباد الله المخلصين .

أخي أيها المعلم حاول أن تستسيغ وتتفاعل مع هذا كله من أجلك أنت ومن أجل صغارك واسعَ كي تنهض وترتقي على الدوام :

١ ـ في اهتماماتك ومشاعرك وميولك وتفكيرك .
٢ ـ فتستجيب للحسنى تتعامل بها مع الصغار والكبار .
٣ ـ وتسعى بكل ما في وسعك من أجل عمارة الأرض وبناء صروح العلم والحضارة .

٤ ـ وتحس وأنت واثق أن العفة أجدر وأرقى من الشهوة ، وأن الاجتماع الأسري على التقوى أسمى ما يكون من اجتماع على الأرض .

ه ـ وتوثّقت أن الإنسان وكل الموجودات ، وكلّ ما يكون منها وما قبلها ، وما بعدها ، لا يمكن أن يكون مصادفة أو مخلوقات بغير خالق .

أخي أيها المعلم المربي تذوق كل هذا ودع ما تتذوقه يتسرب إلى نفسيات أطفالك ... تغدو مؤهلاً للقيام بمسؤولياتك أمام الله والناس ، وستغدو إنساناً لا يُنسى وأخاً لا يُدانى ، وستظل ذكراك في نفوس صغارك ما داموا على قيد الحياة ، وما دامت النسمات تتحرك في صدورهم ... فهذا كله من بعض ما يوحي به تذوق القداسة .

المشكلات الواقعة بين المراهقين ومدارسهم

الفتى اللامع يضيق ذرعاً بعطلة الصيف ويشعر أنها طالت ، نعم إنّ الكثيرين من الطلاب يرون في مجيء العطلة

بداية للراحة ، ولكن هذه الراحة يجب ألا تطول ، لأنها قد تصبح مملة ، ولا يحتملها الموهوبون ، ولهذا نجدهم إثر انقضاء أسبوع أو أسبوعين يحتاجون إلى أن يقرؤوا من جديد ويقرؤوا ، وأن ينشطوا ويتريضوا ، ومن ثم أن يتوقوا إلى عودة الدراسة . وهناك طلبة في كل بلد يقرؤون ويستمتعون في الصيف بكتب الصف القادم ، وفي دراسة أُجريت مؤخراً في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية تبين أن (٧٩٪) من المراهقين والمراهقات مولعون بالمدرسة ، وإن كانوا يرون وجودهم في المدرسة لا يخلو من إشكالات[١] .

وفي مقابلة هؤلاء الذين يودون الاطلاع الحر ويتعلقون بالمدرسة نجد فئات أخرى :

فهناك الصامون الذين لا يملكون أكثر من ذاكرة قوية وقدرة على استرجاع المحفوظات ، ويذكرنا هؤلاء الصامون بموضوع التذكر ودوره في التعليم .

(١) راجع كتاب (دعنا نفهم مشكلات الشباب) للمؤلفين هـ . هـ . ريمرز وس ج هاكيت ، تعريب مهنا تقديم د. القوصي .

● والعلاقة بين الأمرين (التعلم والتذكر) علاقة ضرورية بلا ريب إذ ما فائدة تعلم شيء لم يُحفظ ، أو تعلمه وحفظه لم يُسترجع ويُعاد إلى الذهن .

● وواضح أن العلاقة ضرورية بين هذين الأمرين ، هذه العلاقة هي التي جعلت الكثيرين يسمون الدراسة وفهم المعلومات فيصفونها بالمذاكرة .

● ومما لا شك فيه أن السعيد من الطلاب هو الذي يتمتع باستعداد أكبر للحفظ والاسترجاع .

● كما لا شك في أن على كل طالب أن يقوي ذاكرته إن لم تكن ذاكرته قوية ، وذلك باتباع أساليب ـ لا يتسع المجال للإفاضة فيها .

- وهي تقوم على فهم ما يُراد حفظه أولاً .
- وتكرار هذا الذي يُراد .
- وإتاحة الفرصة للاستراحة ثم العودة إلى التكرار .

ـ وجعل جزئيات ما يراد حفظه وطيدة العلاقة بالكليات (أو التصورات العامة) .

ـ ويؤدي اكتساب عادات التذكر وتقوية الذاكرة إلى قوة الشخصية ، وتفتح القدرات العقلية والشخصية للطالب .

ـ وعلى وجه العموم فإن الصامين لا يملكون التقدير أو الاحترام من قبل زملائهم .

ولا بد من الإشارة إلى أن تنظيم أوقات الدراسة وجلوس الطالب أثناء الدراسة على المقعد ذاته (من أجل التركيز) ، وقيام الطالب بالدراسة مع من تربطه بهم روابط المودة ، كل هذا يعين الطالب على مقاومة الصعوبات ، وتيسير عمليات التعليم ، علماً أن الأذكياء والمتفوقين يستفيدون من صلاتهم بالمدرسين واستفهامهم عن أفضل شروط الدراسة والتعلم .

ومن المؤكد أن المربين المؤهلين تربوياً للتعليم :

١ ـ يميزون بين التعليم ومجرد التذكر ، ويعلمون أن التعلم ليس تجميعاً للمعلومات .

٢ ـ وأن النجاح في المدرسة لا يقتصر على التذكر .

٣ ـ ويعلمون أن الطلبة ليسوا سواء في قدراتهم الجاهزة للتعليم .

٤ ـ وأن هذه القدرات تتحول من زمن إلى آخر ويفيد فيها التشجيع والتقدير .

٥ ـ وأن التقدير ينبغي أن يهدف إلى تقوية شخصية الطالب ودعم كيانه العقلي ، ومواقفه العملية والعاطفية بإزاء أقرانه .

شعور المراهقين نحو المواد الدرسية

في إحدى التجارب التربوية الطريفة التي أجريت مؤخراً على مجموعة من الطلاب والطالبات تبين ما يأتي :

● ذكر ٢١٪ من المراهقين أنهم يشكّون في قيمة المواد الدرسية التي تُعطى لهم .

● ذكر ١٠٪ من المراهقين أن المواد التي ترتبط بالحياة اليومية ، لا تنال الاستحقاق الكافي من التعليم المدرسي .

• ذكر ٣٥٪ من المراهقين أنهم يودون أن يدرسوا مواد لا تُدرس في المدارس .

• ذكر ٣٣٪ من المراهقين يرغبون بتحصيل خبرات تتعلق بالمهن والحياة العملية .

• ذكر ٢٥٪ من المراهقين أنهم في حاجة إلى الإرشاد وإلى مزيد من الشرح والإيضاح في أمور كثيرة يودون أن يسألوا عنها ، ويستفيدون من أسئلتهم هذه .

اتجاهات المراهقين نحو المدرسين

يؤلف موقف المراهقين من المدرسين ناحية هامة من شعورهم نحو المدرسة والدراسة ، وقد أجري بحث لاستقصاء مواقف الطلبة تجاه المربين والمدرسين فانتهى البحث إلى ما يلي :

١ ـ أشار ٢٠٪ من الطلاب والطالبات إلى أن مدرسيهم يحابون بعض الطلبة ويفضلونهم على الآخرين .

٢ ـ شكا ١٠٪ من الطلاب والطالبات من أن مدرسيهم قلما يشجعون طلابهم .

٣ ـ شكا ١٤٪ من الطلاب والطالبات من أن مدرسيهم لا يهتمون بما يهتم به الفتى المراهق .

٤ ـ شكا ٤٪ من الطلاب والطالبات من أن مدرسيهم صارمون غير ودودين ، وأنهم جامدون في علاقاتهم الإنسانية .

٥ ـ تمنى ١٥٪ من الطلاب والطالبات على مدرسيهم أن يعلموا أن منزلتهم بوصفهم مربين لا تقل عن منزلة والديهم ، وأنهم يقدمون للمجتمع المدرسي الكثير من الخدمات ، إذ هم أحسوا بمنزلتهم الوالدية . ولكنّ !؟..

٦ ـ ويذكر ٥٥٪ من المراهقين أن المدرسين المتميزين يتركون أعظم الآثار في نفوس طلبتهم ، وخاصة حينما يقفون موقف (من يلجأ إليه) و (يُدعَون للعون فيستجيبون) وهؤلاء لا يُنسون ولا تغادر صورهم ذكريات الطلبة ، بل تظل ماثلةً في القلوب ، ترافق حياتهم ما داموا أحياء ، وما دامت الأنفاس والنسمات تتردد في صدروهم .

المراهقون وآباؤهم في الأسرة

سألتُ أحد أصدقائي ذات يوم : « كيف حال الفتى ابنك » ؟ (لقد كان هذا الفتى أحد تلاميذي المراهقين المتمازين) ، أجاب الأب : « أنا لا أكلم نزار منذ ستة شهور ! » ، الحق أنني فوجئت بهذا الجواب ، قلت للصديق : « وهل تركته هكذا ودون أي كلمة ... أو توجيه ؟!... » قال : « ماذا تريدني أن أصنع مع إنسان يكبر ولا يكبر عقله » ؟، تابعت كلامي فقلتُ لِمَن تركت ولدك هل تركته لجهله وقلة تدبيره ؟... أنت أبوه أقرب الناس إليه ، وهو في أمسّ الحاجة إليك ، ألا تتصور أنه لم يدرك يوم تركتَه سوى أنك ساخط منه وغاضب دون سبب يعرفه . صمت الأب ... ثم أضفتُ فقلت : « أغلب الظن أنك تؤثِر التسلط وهو يحب الاستقلال ، فاصطدم حبك بحبه . أنت تدري أن ولدك يكبر فهل تدري أن عليك أنت أن توسّع من نظرتك إليه ... وتصحح موقفك تجاهه ، وتجعله كأخ لك » .

رغبة المراهقين بالاستقلال

عندما يشكو الآباء من أن أولادهم لم يعودوا يطيعونهم كما كانوا قبلاً ، فأغلب الظن أن هؤلاء الآباء يجهلون حاجة أولادهم المراهقين إلى الاستقلال ، كما يجهلون أن الآباء يجب أن يتغيروا ، ولا يكفي أن يتغير أولادهم ، فالأطفال يكبرون ونحن يجب أن نكبر .

وفي المقابل فإن أولادهم يشكون من أنهم يعاملون كأطفال ، ويحاولون بشكواهم هذه أن يفصحوا عن حاجتهم إلى أن يعاملوا مثل الكبار ، فهم يريدون أن يختاروا ملابسهم بأنفسهم وأن يضعوا خططهم بأنفسهم ، وأن ينفقوا مالهم في الوجوه التي يرونها أنسب ، وبالاختصار إنهم يريدون أن يكونوا أكثر استقلالاً .

فقد تسمع زهير يقول لزملائه : « إن أبي يريدني أن أذهب إلى محله بعد خروجي من المدرسة ، وأنا لا أرى أي فائدة من ذهابي لمكان البيع ، وأنا أفضل أن أذهب إلى الملعب » . في حين

أن الوالد لم يفعل سوى أن اقترح عليه أن يعمل معه ، ويتعرف إلى البيع والشراء في السوق، أما زهير فإنه يريد أن يشرح لزملائه أنه قد وصل إلى مرحلة من السن أصبحت له فيها توجهات أو مطالب خاصة ، ويريد أن يبين أن شبابه يجب أن يُدعم بالرياضة .

ونحن ننصح شاباً كهذا أن يشرح وجهة نظره لأبيه ببساطة فلا يعمد إلى تجاهل مطالب أبيه وأمه ، وبالعكس فإن عليه ـ بعد أن يلبي مطلب أبيه عدة مرات ـ أن يبين أنه طوع أبيه ، وأنه في الصيف القادم ـ عندما تُعطل المدارس ـ مثلاً يستطيع أن يكون ساعد أبيه الأيمن فيتعلم طرق البيع والشراء في السوق .

وننصح الآباء والأمهات أيضاً بألا يستعملوا أسلوب الأمر والنهي دوماً وخاصة مع أولادهم المراهقين ، وأن يقترحوا ما يرون ضرورته بعد المذاكرة في مجلس العائلة[1] .

(١) يؤسفنا أن القليلين في بلادنا مَن يدركون مجلس العائلة أو سمعوا به .

وقد وجد أحد الباحثين الأمريكيين أن عشرة في المئة الذين سئلوا فأجابوا بأن آباءهم يقدمون لهم إرشادات وتوجيهات أكثر مما ينبغي ، وأنهم يريدون توجيه حياتهم بأنفسهم .

وفي إحدى الدراسات سئل المراهقون السؤال الآتي : إلى مَن تلجأ حين تجابهك مشكلة شخصية ؟؟... فأجاب أكثر من خمسين منهم بأنهم يلجؤون إلى آبائهم وأمهاتهم شرط أن يوافقوا أنهم أكبر مما كانوا أيام الطفولة .

كيف نتعامل مع أولادنا الفتيان

تختلف الأساليب التي تتبعها الأسر في معاملة أبنائها ، لكن الباحثين يرون أن هناك عدة نواحٍ هامة إذا روعيت تمكنا من تلافي بعض عوامل الاحتكاك أو التخفف منها .

١ ـ إن معظم الأبناء يطلبون ما هو معقول (على الأقل من وجهة نظرهم) ولكننا نغفل ملاحظة هذه النقطة ، وهي أن رغبتهم بالاستقلال إنما تولد عندما يحتاجون إلى الأمن والشعور بالأهمية ، وإذا ثابرنا على إشعارهم بأهميتهم وأنهم

يـزدادون (غـلاوة) مـع الأيـام (لأنـنـا نتـوقـع منهم الكثير) فسيزداد تعلقهم بنا .

٢ ـ ومن المفيـد أن نعلم أن معظم الأبنـاء يرغبـون حقـاً بالتفاهم مع آبائهم والاستمرار بذلك ، فقط ينبغي علينا أن نصبر بينما يتعلمون استعمال الأسلوب الأفضل لتحقيق رغباتهم .

٣ ـ وهناك أهميـة كبرى لأسلوب التعليم وأن الحسنى أفضل ما نتبعه في إفهامهم وتعليمهم ، بالإضافة إلى التواضع .

٤ ـ كثيراً ما يسيء الأبنـاء فهم اتجـاهـات آبـائهم نحو بعض المشكلات ، فـالمهم أن نشرح لهم آراءنـا واتجـاهـاتنـا وأن نقنعهم بضرورتها بناء على إيمانهم بحكمتنا ، وإذا فُقد هذا الإيمان ازدادت الصعوبات وتضاعفت .

٥ ـ وعلينا أن نشعرهم بأنهم يملكون الحكمة إذا شاؤوا .

٦ ـ ولكن الحكمة تقتضي من الإنسـان أن يظل متفتحـاً كي يعلم ما لم يعلم ، ويقبل النقد والتوجيه .

٧ ـ وأن ما تعلمه الإنسان عن مخلوقات الله والعوالم التي كوّنها وأشيائها وحوادثها ليس إلا قطرة من بحر .

٨ ـ وأن الإنسان يظل عالماً ما دام يتعلم فإذا ظن أنه علم فقد بدأ جهله .

٩ ـ وأن نقنعهم بضرورة اتباع الحسنى والتواضع والصبر على الناس لا من أجل كسب مودتنا فقط ، بل من أجل مودة الآخرين .

١٠ ـ وأن خير الناس من كان خيراً مع أهله وأن صبر الفتى على أن يتفاهم مع أهله سوف يعينه على أن يفهم الآخرين .

١١ ـ وعلينا نحن الكبار أن نعرف أن من الصعب أن تتغير شخصية المراهق بين عشية وضحاها .

١٢ ـ وأن ما يزيّن الإنسان ليس علمُهُ فقط بل وعمله ، وإتقان عمله بوجهٍ خاص « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

١٣ ـ فلنـذكر دومـاً ولا ننسى الحـديث الشريف الـذي يقول : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم » فهذا الحديث يمكن أن نوجهه إلى أولادنا وإلى أنفسنا نحن الكبار .

١٤ ـ وعلى الآبـاء الـذين لم يكـونـوا متفـاهمين أو بـارّين بآبائهم من قبل ألا يتوقعوا إلا القليل من أولادهم .

الطاعة والتمرد

بمقـدار مـا يحلـو للشبـاب الغربيين أن يتمردوا على أسرهم وآبائهم ، يحلو ويطيب للشبـاب المؤمن أن يبر والـديـه ويحسن إليهما .

تقوم طاعة الصغـار للكبـار على مميزات نوجزهـا ، ثم نتولى شرحها وتفصيلها وهي :

الطاعة عادة ، الطاعة وسيلة لا غـايـة ، الطـاعـة نظـام ، قوام الطاعة الثقة وهي من نتـاج الخبرة ، وتتصف بـالمعقوليـة ، وللطاعة أوقاتها .

☆ ☆ ☆

الطاعة[1] عادة

وفيها كل صفات العادة وميزاتها ، فهي استعداد مكتسب للقيام ببعض الأعمال وتحمّل بعض المؤثرات ، وهكذا فالطفل المطيع يكتسب الطاعة في حياته مع والديه ، ولا يولد مستعداً لها وحدها إنما يولد مستعداً للملاينة وللمجابهة ، والطاعة هي تغليب الملاينة على المشاكسة والتمكن منها في التعامل مع الآخرين .

والملحوظ أن بذور الطاعة تغرس في نفسية الصغار منذ أوائل الطفولة (أي مع الرضاع) و (بفعل الرضاع نفسه) ، إن الأم العاقلة والحريصة على أن تخدم أولادها وتحسن إليهم في الحياة اليومية (بعد ما أحسنت إليهم أثناء حملها بهم) هذه الأم تجعل أولادها أدنى إلى الاستجابة لمطالبها وأقرب إلى طاعتها وطاعة الكبار عموماً .

(١) قد لا يفهم بعض الغربيين لماذا نتحدث نحن عن الطاعة ، لأنهم لا يؤمنون بالإحسان إلى الوالدين ونهي الشرع عن توجيه كلمة (أف) لهما أو نهرهما .

الطاعة وسيلة

ليست الطاعة غاية في ذاتها ، لأن الخضوع المستبد لسيطرة المربين كثيراً ما يؤدي إلى مواقف ضارة بالطرفين (الولد وذويه) ، وهكذا تنحط الطاعة فتصبح خضوعاً أو رضوخاً آلياً لمطالب الآخرين وأوامرهم أياً كانوا ، ليست الطاعة استجابة للأوامر ، وإنما هي استجابة لمواقف معقولة للوالدين ، مواقف تتمشى مع قواعد الجماعة وأساليب التعامل الأخلاقي والنفسي ، وحين نقول (النفسي) فإنما نعني أن للطاعة امتيازاً نفسياً لكل من الطرفين طرف الصغار والكبار . وحين تتوفر فإنها تحسن إلى سائر الأطراف ، وتصنع التفاهم ، وما أجمل التفاهم ، ذاك الذي يقوم على التكافؤ الحر ، والانضباط الذاتي ، وهو انضباط واعٍ ومرن ، يقول وليم جيمس[١] : « تقوم المرونة على أن يبلغ التكوين النفسي من الضعف بحيث يدفع الطفل إلى التسليم ومن القوة حداً يمنعه من الاستسلام » ، وعلى وجه العموم فالطاعة عادة مكتسبة أظهر ما فيها المرونة . هذا وإن الخروج

(١) انظر مبادئ علم النفس ، وليم جيمس ص ١٠٥ .

عن الطاعة يسمى عصياناً ، والعصيان نوع من أنواع الاعتداد النفسي الذي يوضع في غير موضعه ، ومن أشكال هذا العصيان العناد ثم التمرد[١] .

الطاعة نظام

تكون الأم منظمة (ومنظومة) حين تضبط نفسها أولاً ، ثم تضبط أوقات التغذية والنوم والنظافة واللعب ، فيرتاح أطفالها إلى مواقيتها ويستطيعون التنبؤ بسلوكها حين ترضى أو تسخط . وإذا اضطرب النظام الذي يؤخذ به الصغير اضطرب عقله ، فتوقف أو تمنّع عن الطاعة لجميع المضطربين والذين لا يلتزمون بالنظام .

وهكذا نرى أن الطاعة (والعصيان) يتعلقان بالكبار لا بالصغار وحدهم ، وحينما يشكو أحد الآباء معصية أولاده فابحث وتأكد من سلامة شخصيته وتصرفاته كأب .

(١) وسنفرد لها بحثاً مستقلاً بمشيئة الله .

الطاعة ثقة

يطيع الطفل والفتى من يثق بهم ويرتاح إليهم على أساس أنه يتعامل مع محبين ودودين ، وهو لا يخشى شيئاً إذا هو أحسن لمن يثق بهم ، وأحسنوا إليه بدورهم[١] .

الطاعة تولد من الخبرة

تقوم الطاعة على المعرفة ، فالطفل يطيع أولاً من يعرفهم ثم يتعلم الطاعة للآخرين بما فيهم قواعد الأخلاق والدين ، وهكذا فالطاعة تُكتسب بالخبرة لا بالنصيحة ، وأما كثرة الطلبات ، وتوجيه الأوامر ، فتؤديان إلى نتائج عكسية .

الطاعة معقولية

كان العرب يقولون إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ، فالطاعة تتبع الرشد والراشدين ولهذا يقال : إن للطاعة منطقها ومعقوليتها . وهكذا فمن السهل أن يقال

(١) قيل في الأثر : إن الله تعالى يحاسب الآباء عما فعلوه بأولادهم قبل أن يحاسب الأولاد عما فعلوه بآبائهم .

للطفل : « اهدأ » و « لا تتحرك » ، « ولا تلعب » ، « حافظ على نظافة ثيابك » ، ومن السهل أن نكثر من الطلبات[١] ، لكننا إذا صنعنا ذلك ساعدنا على اضطراب شخصية الطفل وتوازنه الذاتي وجعلناه لا يدري ما يصنع .

أوقات الطاعة

وشيء آخر وهو أن الطفل إذا كان مستغرقاً في اللعب أو المطالعة أو مشاهدة التلفاز ، فمن الصعب تقديم الطلبات إليه في تلك اللحظة ، اللهم إلاَّ إذا كان من الْمَرضيين الطيبين الذين اعتادوا وأدركوا أن رضى الأبوين أسمى من أي شيء آخر كاللعب والتسلية ، ولن يتوفر هذا إلا في الأوساط المؤمنة الوقورة .

نصائح إلى الوالدين والمربين عامة

١ ـ حاول أيها المربي أن تقلل ما استطعت من المطالب والأوامر وقدّمها بتحبّب وأنت واثق من الإجابة .

(١) حتى قيل : إن إصابة المعلمات والأمهات الثرثارات بالتهاب اللوزات يقدم للصغار فرصاً طيبة للاستراحة .

٢ ـ تجنب أسلوب الاستبداد والصرامة ، ولتذكر هنا قوله تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

٣ ـ قبل أن تطلب مطالبك وجّه انتباه الصغير واهتماماته ، وفسّر له السبب أو الأسباب ما استطعت .

٤ ـ وحاذر أن تتجاهل طلبات ابنك وإذا عجزت عن تحقيقها اشرح الإمكانيات والظروف .

٥ ـ لتكن طلباتُك إيجابية بعيدة عن النفي أو السلب ، لا تقل له : « لا تفعل » بل قل له : « افعل » ، وبدلاً من قولك : « لا تضيّع وقتك » قل له : « حافظ على أوقاتك » .

٦ ـ ابدأ بنفسك أولاً فتفاهم مع ذاتك ثم وجّه مطالبك إلى من حولك .

٧ ـ حاذر المواقف المذبذبة فلا تمنع اليوم ما كنت تتساهل فيه من قبل ، ولا تتساهل في أمر كنت تمنعه قبلاً (إلا لأسباب قليلة معقولة يمكن شرحها) .

٨ ـ عليك أن تجعل مطالبك ملتزمة بما أمر الله (فالله

لا يريد السوء) (وإيـاك والفظـاظـة) لئلا ينفض النـاس من حولك ، وتذكّر « أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

في حوافز السلوك[1]

الثواب والعقاب

« كفى بالمرء إثماً أن يضيِّع من يعول » حديث شريف .

صديقي حدثتك عن الطاعة وها أنذا أحدثك عن بعض نتائجها :

الوظيفة الأساسية للثواب هي التشجيع والدعم الإيجابي وخلق الحماس للعمل الطيب وحث الآخرين على ذلك . فهو وسيلة من وسائل التقدم والسير نحو الأفضل .

أما الوظيفة الأساسية للعقاب فهي الردع ، وإقلاع المذنب عن الذنب ، وإقناعه بأن لا فائدة تُرجى من الانحراف ، فإنّ طريقه مسدود والسالك فيه ضائع .

---

(١) انظر العدد (٢٠٩) مجلة العربي ١٩٧٦ ، ص٦٢ ، د. علي أحمد علي .

صورتان للثواب

إن للثواب صورتين اثنتين إحداهما مادية والأخرى معنوية ، فالثواب المادي يقوم على تقديم شيء ملموس محبب ، كالنقود أو الحلوى أو اللعب ... إلخ .

والثواب المعنوي يقوم على إظهار الرضى والبهجة من الطفل المحسن والافتخار به وتشجيعه عن طريق الكلام أو القيام بالعفو عن ذنب يُوقع عليه العقاب .

ويرى المختصون أن الثواب المعنوي أفضل من الثواب المادي بدعوى أن المعنوي يساعد الطفل على تفتّح وجدانه ونمو ضميره الداخلي ويقوي ثقة الطفل بنفسه ، ويُشعره بأنه مجوّد ومحسن وقادر على كسب ثقة الناس .

أما الثواب المادي فيحتمل أن يؤدي إلى النفعية وتكوين الإنسان الأناني الذي يحرص على النقود والهدايا أكثر من حرصه على النمو والنضج ، ويعتبر النجاح وسيلة من وسائل جمع المال

والمنافع ، وهكذا يخرج الثواب عن وظيفته الأساسية ويصبح غاية في ذاته بعد أن كان في الأصل مجرد وسيلة[1] .

وحين نفكر في إثابة أطفالنا فعلينا ألا ننسى القاعدة الأساسية الآتية :

لا ثواب على واجب

فإذا قام الطفل بتناول طعامه (وهو ضروري) ، أو نام في الوقت المناسب ، فإنه ينال رضانا فقط ولا ينبغي أن يُقدم إليه الثواب ، أما إذا جاد فأعطى أخته هدية أو قدم خدمة لأحد أبناء الجيران مثلاً ، فإنه يستحق منا الثواب والتهنئة وذلك ريثما يشعر بواجباته لأخته .

ويرى علماء النفس أن الوالدين يظلان نموذجين طيبين

(١) معروف أن البريطانيين يعاملون أفراد الشعوب التي يستخدمونها على أساس أنه إذا أحسن أحدهم ، قدموا له مالاً ولم يقدموا له تشجيعاً أو وساماً أو ما شابه ذلك ، فالتشجيع الذي يبني الوجدان ، يقدمونه لأبنائهم وحدهم .

طالما لم يعرفا إلا الثواب ، ويصبحان أدنى وأقل قيمة حين يضطران إلى اللجوء للعقاب .

العقاب

ويتضمن ضغطاً معنوياً أو تأديباً جسدياً بقصد تقويم الاعوجاج في السلوك المنحرف ، وردعه أو رده إلى الجادة الطيبة .

شروط العقوبة

هناك شروط نفسية وأخلاقية يشترطها المربون الفاضلون للعقاب أهمها :

١ ـ يجب أن يكون العقاب مسبوقاً بتنبيه أو إنذار ، وأن يكون متناسباً مع الذنب (كماً وكيفاً) .

٢ ـ يجب أن يوقع العقاب بُعيد اقتراف الذنب ، أما تأجيله فيفقده الجدوى والفائدة (مثل تأجيل الثواب) .

٣ ـ يجب أن يوقع العقاب بعد أن يُنبه الطفل إلى

خطئـه ، وأن يعطى الفرص كي يقلع عن رعـونتـه ، وفي حـال إصراره بعد تعهده بإصلاح الأمور يُلجأ إلى العقاب .

٤ ـ والمبـدأ هـو أن علينـا أن نقلـل من تـوقيـع العقـاب مـا استطعنـا ، فهـذا التقليـل يعطي العقـاب مهـابـة وهي ضرورية ، وعلينا أن نلجأ إلى التدرج في العقاب (من الأضعف إلى الأشد) إذ إن بعض الأطفال لا يحتاجون إلى أكثر من التنبيه كي يرتدعوا ، وهكذا أثرت في حضارتنا العبارة الآتية :

لا أستعمل سوطي ما دام ينفعني صوتي

ولا أستعمل صوتي ما دام ينفعني صمتي

والحـق أن الصمت مـع التـأنيب الـوقـور ينفـع مـع طفـل حساس ، وكثيراً ما يضرّ به السوط ويخرجه عن توازنه .

٥ ـ وحين نعاقب فإن علينا أن نلتزم الهدوء والأناة والبعـد عن الانفعال وإظهار التشفي والانتقام .

٦ ـ يجب أن يكون ألم العقوبة أكبر من اللـذة التي حصّلهـا المذنب من الانحراف .

٧ ـ يجب أن نبتعد ما استطعنا عن لغة التهديد والوعيد ، لأن التهديد إما أن يؤدي إلى هلع الطفل وذعره ، وإما أن يجعل الطفل يتأكد أننا نهدد ولا نصنع شيئاً ، فهناك خطأ في الحالتين .

٨ ـ لا يجوز أبداً أن تمتد العقوبة فتؤدي إلى إهانة الطفل وإهدار شخصيته وكرامته التي خلقها الله تعالى فيه .

٩ ـ لا يجوز أبداً أن نوقع العقوبة على طفل أمام أصدقائه أو منافسيه أو أعدائه .

١٠ ـ علينا أن نتريث دوماً بشأن العقاب فنحذف ما لا يلزم منه ونعدل ما تعودنا عليه وأسوأ حالةٍ يمكن أن يصل إليها العقاب تكون :

« حين تتجمد عواطف الذي يُعاقَب فلا يعود يبالي بشيء قائلاً في نفسه أو مصرحاً »

« أنا أذنب وأنتم تعاقبون وهذا بهذا ... فماذا تريدون بعدها ؟ »

ولسان حاله يقول : « إنني أستمتع بالذنب وأجد فيه ما يغيظكم ويثيركم » .

وفي هذه الحالة يكون الطفل قد أضاع نفسه وفقد كرامته وفقده والده ، فلنذكر قول رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول »[١] .

أصدقائي الشباب ، وهاكم نصاً اقتبسناه من مقدمة ابن خلدون يقول فيها : « لقد أوجد الله تعالى الذرية لنا لنسعدها ونسعد بها ، لا لنشقيها ونشقى بها ، فلا يضار مولود بسوء تصرف والديه ، ولا يُضار والد بسوء تربية ولده ولا تكون الذرية قرة أعين الأبوين ، إلا إذا وجدت الرعاية منها ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ [الفرقان : ٢٠/٧٢] » ، ويتابع ابن خلدون قوله : « والقرآن يوجهنا لنتقيد بقيمة الأولاد ومعرفة أن الأخيار منهم هم الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات

(١) للبيهقي في شعب الإيمان .

ويظهر إيمانهم جلياً في حياتهم يقول الله تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاءُ الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ [سبأ : ٣٧/٣٤] » .

العقاب بالضرب

أخي الشاب ، قد يسأل بعض الناس ونشاطرهم السؤال ، ما رأيكم بالضرب في التربية ، وفي الإجابة عن هذا السؤال نقول :

إن الضرب للحيوانات ، ومروضو الحيوانات يمارسون ضربهم الدواب بدرجات متفاوتة ، فبعض المروضين يختلفون عن غيرهم بالضرب ، وذلك تبعاً لذكاء المروِّض ومقدار خبرته . وأذكى المروضين يحتاجون إلى أهون ضرب . هذا بالنسبة إلى الحيوانات فما بالك بالنسبة إلى الإنسان !

إن الإنسان لا يُضرب وهذا مبدأ عام ، إلا في حالات جدّ نادرة ، وهي التي تدخل تحت حكم الآية : ﴿ ولكم في القصاص

حياة ياأولي الألباب ﴾ [البقرة : ٢/١٧٩] ومربو الإنسـان يختلف بعضهم عن الآخرين في الحـاجـة إلى العقـوبـة ، تبعـاً لـذكائهم وخبراتهم ، وأفضل المربين يحتـاجون إلى أقـل عقـوبـة لأطفـالهم فضلاً عن حاجتهم إلى الضرب .

لقـد تخلت الأمم عن الضرب في المـدارس ، فجعلتـه فرنسـا محظوراً على الأطفـال في عـام (١٨٨٢) ، وحظرتـه النورويـج عام (١٩٣٦) ، وإسبانيا (١٩٦٧) ، وإيرلندا (١٩٨٢) .

والغريب أن الإنكليز مـا يـزالـون يسـوغـون الضرب ويسمحون به في مدارسهم على الرغم من أن قوانينهم قد منعته في السجون وأوسـاط الجيش ، ولكنهم مـا يزالون يـأخـذون بـه في تقويم الصغار !!

يروي وينستون تشرتشل في مذكراتـه كيف شـاهـد بعض المـدرسين ، يضربـون الطـلاب المعـوقين والمتخلفين حتى سـالت منهم الـدمـاء ، ومعروف أن حكـومـة (تـاتشر) كانت تتمسـك بعقوبة الضرب حتى إنها رفضت في عام (١٩٨١) التماساً باستثناء

المعوقين من الضرب ، وكأن القدر الذي أصابهم بالشذوذ لا يكفيهم ، بل جعلهم في حاجة إلى عقوبة ثانية لأنهم يسلكون سلوك الشواذ .

يربط علماء النفس بين أسلوب المدرسين الذين يضربون تلاميذهم ، وبين طفولتهم التي أمضوها هم حين كانوا صغاراً (حتى إن بعض المدرسين قد اختاروا مهنة التعليم كي ينتقموا لأنفسهم بالضرب !... مقابل ما كانوا يُضربَون ويُعاقَبون من قبل) . وحقاً فإن المدرس الذي يقوم بالضرب يفرغ توتراته ، وينفّس عن عقده الشخصية ، وغني عن البيان أن الضرب وخاصة العشوائي (دون ضوابط) يُلحق الأذى بالطالب في جسمه وأخلاقه ونفسيته ، وإذا تعدَّد وازداد جعل الطالب لا يهمه الألم ، ولا يكاد يرعوي عن غيه ، بل يضاعف من أذاه ولسان حاله يقول : صحيح أنني أقوم بالأذى ، ولكنكم تشبهونني حين تسعون إلى أذيتي بالضرب ، وسلوككم يغطي سلوكي (فواحدة بواحدة) ، اضربوني ما شئتم وسأضاعف من أذاي بما أشاء .

يقول الدكتور ليبرمان : « إن من شـأن ضرب الطلاب أن يضعف أجهزة المناعة في أجسامهم ، وأن يزيد المعقـدين تعقيـداً والمنحرفين انحرافاً » .

المراهقون والأخلاق

الأخلاق عند المراهق عنوان نجاحه في الحياة ، وتفاهمه مع ذاته ومع الناس وضمان نموه ، وشخصيةُ المراهق تسير نحو كمالها بفضل الأخلاق ، أي بفعل الخير ومحبة الخير .

والمراهق الذي كان في طفولته قد نشأ في أسرة سوية تحترم إنسانيته وتصون قدراته وتعامله بالإحسان فإنه يسير نحو الإحسان ومحبة الخير تلقائياً بسهولة أكبر وعناء أقل .

ومع هذا يجب أن نعلم أن معاملة الأسرة لولدها لا تكفي وحدها لضمان سيره أو اتجاهه نحو الخير . (نعم إن معاملة الأسرة بالإحسان تُعد شرطاً ضرورياً ولكنه شرط غير كافٍ وحده) ، إذ المهمُّ أن يتحقق شرط آخر وهو تجاوب الطفل أو استجابتُه بالحسنى والأخلاق الكريمة ، على ما قدمته أسرته من الإحسان . إن الاستجابات هي أهم ما يصنع الشخصية .

وحتى حين تسوء الظروف فتكون طفولة الإنسان قد اكتنفتها المساوئ فإنه إذا أتيح له من يُعنى به ويعينه خارج الأسرة (في المدرسة مثلاً) ، فإنه يتوجه نحو الخير ، ويتفجر الخير من أعماقه ويتجاوز المساوئ لأن الفطرة تقوم على اتباع طرق الخير ، ويظل الإنسان عبداً للإحسان .

مفهوم الأخلاق :

يُقصد بكلمة الأخلاق أمران اثنان على الأقل :

١ ـ قواعد لفعل الخير .

٢ ـ أفكار ومبادئ خيِّرة .

تقصد بالقواعد مجموعة الطرق والأساليب التي من شأنها إذا أُتّبعت أن تجعل الإحسان ينمو ويتفتح وينتقل من إنسان إلى إنسان .

أما الأفكار فهي جملة المعاني التي تُلهم الإنسان وتشجعه وتحضُه على أن يظل مستقيماً على فعل الخير قائماً بواجباته ومراعياً حقوق غيره . وهكذا نجد أن فعل الخير لا يكفي وحده

إن لم يكن صادراً عن القناعة بضرورة الخير .. وهذه القناعة تعني أموراً كثيرة أهمها :

أ ـ المبادئ .

ب ـ النوايا .

جـ ـ والأهداف .

أ ـ إن الأخلاقيين بحق يملكون **مبادئ أخلاقية** ، وهذه المبادئ الأخلاقية كثيرة كمبدأ احترام الحياة (التي خلقها الله تعالى) ، ومبدأ تقدير الآخرين واحترام الذات ، مع الاعتقاد الراسخ أن الوجود كله وجود خيّر وجميل ، ومن يلتزم به يفز بالرضا عن نفسه إن لم يحرز رضا الآخرين .

ب ـ **النوايا الأخلاقية** وهي الإرادة القائمة على إيثار الخير وتفضيله ، وهكذا فإن النية تُعد جوهر العمل الأخلاقي الطيب ، فما قيمة عملٍ نُحسن فيه إلى الناس ليتحدث الناس عنا ، أو يمجدونا أو يمنحونا شيئاً من مُتع الحياة ، فهذا خروج عن الأخلاق وهو نفاق أخلاقي ، ولهذا فإن النية الطيبة يجب

أن تقترن بالفعل الطيب ، وتعتبره هدفاً في ذاته ، لا لشيء آخر .

إن النية الطيبة أهم من العمل الطيب نفسه ، ويذكّرنا هذا بمقولة الرسول الكريم : « **نيّة المؤمن خيرٌ من عمله** » .

جـ ـ **الهدف** وهو الغرض أو الهدف الذي يستهدفه الإنسان من أفعاله وهو لا ينفصل عن المبادئ والنوايا ، وهكذا يختلف علم الأخلاق عن العلوم الأخرى (مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات) ، لأن هذه العلوم الثانية يبتغيها العلماء بحثاً عن الحقائق (الفيزيائية أو الكيماوية ..) في ذاتها ، أما علم الأخلاق فلا يتوخى معرفة الحقائق الأخلاقية وحسب ، بل لا بد من تحقيق أهدافها أي إنجازها . ويتم هذا الإنجاز بالتزام الإنسان بالأخلاق التزاماً حراً وبغير إكراه .

صورتان للأخلاق

المهم في كل عمل أخلاقي أن تلتقي صورتان هما : **الالتزام والابتهاج معاً** ؛ أو كما يقولون : (بالإرغام والإغراء ..) فنحن

نصبح أخلاقيين حين نلزم أنفسنا بأنفسنا من جهة ، فهذا هو الإلزام أو الالتزام ، ومن جهة أخرى فنحن نصبح أخلاقيين حين نبتهج ونفرح بتحقيق أفعالنا الأخلاقية وأفعال الآخرين .

ويتطابق هذا مع قول النبي الكريم ﷺ : « إذا سرّتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن » .

ومع هذا فهناك محذور دقيق هو أن يصبح الفرح هدفاً للإنسان ، فالفرح الذي يرافق الخير يصبح غاية في ذاته وكذلك الأمر فإن الضيق من التحمل يقيّد الأفعال الخيّرة التي تقوم على الجهد والتي لا تخلو من الفرح .

تكوين الأخلاق عند المراهقين

إن الأفعال الخلقية للمراهقين هي امتداد لأفعال طفولتهم الطيبة ، مع فارق بسيط هو أن الطفل لا يدرك ـ في أوائل طفولته ـ معنى الالتزام الذاتي فهو لا يملك ذاته بعد ، أما المراهق فإنه يدخل إلى ساحة الأخلاق ، ويصبح خلوقاً إذا كان يفعل الخير وينويه ، ويفعله بحريته أو يلزم نفسه بنفسه .

والمربون يتوقعون فعل الخير في المراهقين الذين يشرفون على تربيتهم ، ويعلمون أن من الأفعال الأخلاقية ما يتطلب الصبر وذلك ، لأن فعل الخير ليس سهلاً دوماً ، وليس ميسوراً ، وخاصة إذا تقلص فعلُ الخير أو انعدم ، وعلى الرغم من كل شيء نقول : إن الصعوبات التي تجابه الأخلاقيين تجعل أفعالهم الأخلاقية أسمى وأرفع ، لأنها تصبح كالعملة النادرة التي يصعب الحصول عليها ، وهذه الناحية هامة وتطمئن الأخلاقيين وتجعل الناس يلذون بالألم ، وهذه أعلى درجة من درجات الأخلاق .

مواقف الآباء

من حولنا آباء كثيرون نجدهم أخلاقيين في حد ذاتهم ، بمعنى أنهم مستقيمون على فعل الخير ولكنهم قد يفضلون الوجه الجهم ، والأسلوب القاتم العابس ، كي يزرعوا أفعال الخير والأخلاق في نفوس أولادهم (مهما كانوا صغاراً أو كباراً) ونحن نرى أن هذا أسلوب خاطئ ، وبتعبير آخر إذا كانت الأخلاق تقوم على الترغيب والترهيب ، فإن هؤلاء الآباء لأسباب مجهولة يؤثرون

الترهيب ، أما نحن فإننا نفضّل أو نؤثر الأمرين معاً الترهيب والترغيب ، وقد كان علي رضي الله عنه يقول : « **رحم الله امرءاً أعان ولده على بِره** » ومع ذلك نلاحظ أن الترغيب أحلى وأدوم وأولى ، وبعض الآباء إذا دخلوا بيوتهم فإن هذه البيوت تصبح كما لو كانت في حالة طوارئ ، ولا أحد يقبل أن تكون حالة الطوارئ مماثلة لحالات البهجة والسرور . هذا وقد بيَّنا أن ذكريات البيت هي أهم وأحلى من كل ما يكون في البيوت .

وفي مقابل تجهُّم الآباء واتباعهم سبل الغلظة[1] نجد مراهقين كثيرين يتعلمون الاستجابة بالغلظة على الغلظة ، وبالجفاء على الجفاء ، وبهذه المناسبة فإن علينا ـ معشر العرب المسلمين ـ أن نشكر المولى تعالى أن جعل أسرنا في بلادنا ما تزال تتميز بالترابط الأسري ، فتنتقل المودة والرحمة من وسط الآباء إلى الأبناء ، في حين أن الحياة الأسرية في بلاد الغرب تقوم على الانفصال أو الفصام بين الأجيال .

---

(١) لنذكر قوله تعالى يخاطب الرسول نفسه ﷺ : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : ١٥٩/٣] .

لقد أورد De Besse المختص في علم النفس التربوي[١] بفرنسا قوله : « حين يكبر الأطفال في بلادنا فلا بد أن يظهر التمرد بشكل محتم أو شامل ، وعلى الآباء والأمهات أن يدركوا هذه الناحية ويتعاملوا مع أولادهم على أساس قبولهم بهذا الأمر والتسليم به ، فالنمو يعني التمرد » .

أما العلاقة بين الآباء والأبناء في أسرنا ، فهي تقوم على أساس الإحسان إلى الوالدين وتقديم إحساننا للأم على الأب على أساس « أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك » ، إن الإحسان أعلى درجات البر .

أما ضرب الآباء أولادهم فلا يجوز أن يُمارس إلا مثل الكي آخر الدواء ، ونجد معظم الأحوال أن الآباء الذين يلجؤون كثيراً إلى الضرب يتميزون بالجهل والعجز ، وفي رأينا أن على الأب أن يواجه ولده باللسان العذب والتسامح على خطئه مرات عديدة ، ويؤكد لولده أن أسلوب الإكرام طبيعي نظراً للعلاقة الكريمة بين الوالد وولده ، « فهو أغلى الناس » وحين

(١) في كتابه عن المراهقة في المقدمة .

تتكرر مراتُ انحرافه ، فإن الأمر يختلف ، وهنا يتوجب على الأب أن يتحاور مع ولده ويأخذ منه التأكيد أن الأمور ستتحسن ، وإذا لم تتحسن ، (فإن هذا يشير إلى أن ثمة خللاً في العلاقة) وبعد تذكير الولد بالوعد الذي قطعه على نفسه ، يمكن اللجوء إلى الضرب ، ويتم الضرب ضمن شروط أهمها :

١ ـ ألا يأخذ الضرب شكل الانتقام .

٢ ـ وأن الوجه لا يُضرب بأي حال .

٣ ـ وتتم الأمور بمعزل للطفل عن أخوته وأصدقائه .

٤ ـ ومع الإيضاح أن الأب يلجأ إلى الضرب مضطراً ، وأنه يتمنى أن لا يكون الضرب قد حصل .

٥ ـ وأن العقاب على الفعل السيء وليس على الشخصية ، فإنه يظل الولد المحبوب والمعزوز وسترتقي كرامته بالطبع حين يتجرد عن المساوئ ، وهو كائن ومكرَّم ـ مثل جميع أبناء آدم الذين أكرمهم الله .

الصداقة عند المراهقين

في حديقة صينية أثرية وُجد بين الزهور حجر كبير نُقش عليه النص الآتي : « سعيد سعيد ذلك الذي وُهب نعمة الصداقة ، لقد أوتي ملكةً تساعده على أن يرى في الناس كل جميل وطيب ومحبوب » .

الحق أن الصداقة هي الضوء الذي ينير طرق الحياة وظلماتها ، وتذلل للإنسان الكثير من الصعوبات ، إنها مصدر كبير من مصادر الدفء والحنان ، والرذيلة في بعض الأحيان ، في الصداقة نلتقي وجهاً لوجه مع الإنسان ، والأصدقاء يتيحون لنا فرصاً لنشهد أنفسنا في مرآتهم وعلى صفحات وجوههم .

أخي الشاب : إن الفضيلة شيء لا يُرى ، ولا يُلمس ، لكن الصديق الفاضل يشخص الفضيلة ويصورها لنا تصويراً واضحاً ينصبها أمامنا . وكذلك يصنع الصديق المحبوب حين يصور لنا

المحبة ، وهكذا نلتقي مع القيم ونشهدها حينما نصادق الطيبين القيمين ، إنهم يجعلوننا نرى القيم ونقدرها ويساعدوننا كي نحبها ونتعلم طرق الحصول عليها .

صداقة المراهقين

لا يختار الطفل في الغالب أصدقاءه بنفسه بل يختارهم أهله وذووه ، أما المراهق فإنه يسعى كي ينتقي أصدقاءه وحده ودون تدخل أحد . فيختار من بين تلاميذ صفه أقربهم إلى مكانه في الصف أو أقربهم إلى بيته وإلى قلبه ، ومن يماثله في الشكل أو الطباع أو من يكمله ويحقق رغائبه .

لكن المراهق بسبب قلة خبرته ، فإنه قد يخطئ وكثيراً ما يخطئ في الانتقاء ، ولهذا فهو في حاجة إلى توجيه الكبار لا إلى تدخُلهم !..

وأياً كان الأمر فإن على الوالدين أن يسهرا ويلاحظا مَن يكون صديقاً لولدهما ، ولأن الصاحب ساحب ، ولو أنهما ظنا أن المراهق قد كبر إلا أن خبرته بالبشر ما تزال فجة غير

ناضجة ، ولهذا يظل في حاجة إلى توجيه الكبار ومعروف أن الصفات المقيتة يتم معظمها من أصدقاء السوء ، إن أصدقاء السوء يهونون على المرء الدخول إلى عالم المساوئ والرذيلة ، فالمراهق قلما بل نادراً ما يعرف الخمرة بنفسه والتدخين والمخدرات ، ولكنّ تعرُّفه ومصادقته من يتعاطى الخمرة والتدخين والمخدرات يتيح له أن يشهد هذه الموبقات بعينيه ويراها أمامه وفي متناول يديه ، ويلعب قانون الوقاية دوره التام الكامل هنا ، لأن منع الوصول إلى الرذيلة عن ولدنا أيسر بكثير وأضمن لطردها ومعالجة أمرها بعد أن تصل إليه ، وفي كثير من الأحيان تتعذر المعالجة أو تستحيل .

إن أشق ما يكون في حياة الأب وأشد ما يبئسه ويصيبه في شرفه وشعوره أن يُقال له : « تعال وشاهد ولدك في النظارة أو وراء قضبان السجون » بسبب المخدرات أو غيرها .

ومن أجل تحقيق قانون الوقاية فإن على الأبوين حين يكتشفان سوء أحد أصدقاء ولدهم ، أن يكونا حكيمين في إبعاد

ذلك الصديق ، والأفضل عدم التدخل المباشر ، لئلا يتمسك به الفتى أو يتصل به في غيابها .

ولكن الحوار اليومي والنقاش الهادئ والتوعية ومشاركة الفتى في تحديد مواطن الخير والشر في الناس ، كل هذا يُعد أفضل طريق لإبعاد الأصدقاء غير المرغوبين .

وإذا أردنا أن يكون لأولادنا أصدقاء طيبون ، فإن علينا توطيد صلاتنا بالأسر الرصينة الماجدة ليحسن أبناؤها التعرف على أبنائها ويكتسبوا فضائلهم .

صديقي الشاب : لا تقتصر الصداقة الحقة على ما بين البشر ، فهذه ناحية مؤكدة ، لكن الصداقة أوسع وأبلغ من صداقة الإنسان للإنسان ، إن الصديق الحق هو من يستأنس بالحياة ، ويحترم الوجود ، ويشعر أن العالم من حول البشر ليس غريباً عنهم ولا هو معاد لهم ، إن الصداقة في عُرف (العرب المسلمين) هي الصداقة مع الشمس والقمر والصباح والمساء والزهور والطيور ...

أيها الأبوان : أولادكما هم أغلى الناس ، هكذا تقولون ، ولكن هذا القول لا يكفي بل ينبغي أن يُدعم القول بالعمل ، ألا تريان أن معظم الناس يخبئون الكلام المهذب والأسلوب الظريف ليقدموه للغرباء ، ولا يكادون يقدمون شيئاً منه لأولادهم وزوجاتهم ، مع أن هؤلاء أولى من غيرهم بالكلمة اللطيفة والتعامل اللبق .

تكوّن المسؤولية
عند الشباب والمراهقين

الأخلاق تقتضي المحاسبة والمسؤولية ، وكل إنسان مسؤول عن أعماله وأقواله أمام الناس وأمام وجدانه ، وبين يدي الله .

تعريف : إن كلمة المسؤولية « هي مصدر صناعي لفعل (سأل يسأل) » ، وقوامها أن ينضج الشعور الأخلاقي والاجتماعي عند الفرد ، ويصبح قادراً على أن يبرر سلوكه ، أو يعلل تحركاته وأقواله ، فهناك مسؤولية اجتماعية خارجية (أمام القانون والعرف) ، ومسؤولية وجدانية داخلية (أمام الضمير) ، ومسؤولية دينية في يومين : يوم الحساب وفي هذه الحياة (أمام الله والناس) .

صديقي الشاب : وإنه لمن الخطأ الشائع الظن أن الإنسان المسؤول يجب أن يكون عابساً بالضرورة ، مقطب الوجه ،

تظهر عليه سيماء السخط أو يتخذ وضعية من يحمل أعباء الحياة على كتفيه ، ولا يستشير أحداً ، وقلما يعجبه أحد ، وبالعكس فإن الإنسان المسؤول ، الناجح في حمل مسؤولياته إنسان متكيف غير متكلف ، يثق بنفسه ، ويفتح قلبه لغيره ، أما اعتماده على نفسه فلا يدفعه إلى أن يسبب متاعب لنفسه أو لغيره ، ولا يتخذ الأسلوب الحاد والمزاج المتشنج والفوقية المتعالية ، إن المسؤول والد فاضل ، وزوج مهذب ، وجار طيب ، ورئيس عمل فذ ومحبوب .

يجب أن نعلم بادئ الأمر : أن المسؤولية هي من الأمور التي تكتسب قبيل المراهقة ، كما أنها شيء يزيد وينقص ، وينمو ويتعدل ، وقد يتلاشى مع الأيام .

إن الطفل لا يولد مزوداً بالمسؤولية ، كما أنه لا يستطيع أن ينمي الشعور بالمسؤولية من ذات نفسه ، إنه يتعلمها من البيئة التي يعيشها بين ذويه وأهله ومعلميه وزملائه .

إن طفلاً عاش في جو من الأمان ، ولقي العناية تحف به

من قبل الآخرين ، يملك استعداداً طيباً لأن يبذل عنايته للآخرين ، فهو يشارك ويعين أولئك الذين ساهموا في خدمته وأعانوه على تحقيق نموه . يرى العالم (سوروكين) : أن تنشئة المراهقة في جو من الحنان يؤدي إلى الشعور بالمسؤولية ، وهكذا نرى أن أهنأ الأطفال وأكثرهم سعادة ، هم أبناء الأسر المتفاهمة التي تغمرها المودة ، وليسوا بالضرورة أبناء الأسر الغنية أو الفقيرة بل هم أبناء الأسر المتحابة .

ومنذ أن يتفتح وعي الأطفال على الحياة نجد أن كل طفل إمّا أن يحب نفسه ويُشغف بها ، وإمّا أن يحب الآخرين ويشغف بهم .

والأطفال الذين يميلون إلى عداء الآخرين نجدهم من الذين قد مروا بتجارب مؤسية جعلتهم ينطوون على أنفسهم ، صابرين على المرارة ، وأن إيذاء الآخرين لمشاعرهم قد أودى بهم إلى أن يبحثوا في قرارة أنفسهم عن الأحاسيس الحلوة بعد أن تراءى لهم أن الآخرين لا يصلحون لمنح مثل هذه الأحاسيس المرغوبة .

وبالمقابل : فإن الأطفال الذين لقوا من ذويهم أو معلميهم العناية والرعاية ، وتدربوا على أن يفتحوا نفوسهم للناس ، يألفون رؤية العالم بوصفه مكاناً جميلاً وعلى رؤية الأشخاص بوصفهم أناساً يستحقون أن يُخدموا .

إن التربية الناجحة هي التي تصنع لنا عدداً طيباً من النموذج الثاني للأطفال : أي الذين يألفون الحياة والناس ومن هذا النموذج يتكون أفاضل الناس وأماثل المسؤولين الناجحين .

في حين أن النموذج الأول (نموذج العدوانيين والساخطين) هو الذي يتكوّن منه المتسلطون والمخربون ... وأعداء المجتمع .

ومن العبث أو إضاعة الوقت أن نرجو أو نتوقع تكوين المسؤولية الناجحة ، أو التي تهدف إلى خدمة الآخرين عند أناس لم يُبذل لهم الحب ، ولم يُمنحوا الاعتبار والتقدير الضروريين لبناء شخصياتهم السوّية .

لا إفراط ولا تفريط

يجب علينا أن نبيّن نقطة هامة جديرة بالعناية ألا وهي

أن بعض الآبـاء يخشـون أن يـؤدي العطف على الأطفـال إلى إفسـادهم ، فيحرمـون أطفـالهم العطف الضروري لهم ، وحرارة المـودة ، ودعـواهم هـذه لا تستقيم إلا في حـالـة التـدليـل المفرط ونقصد بـه المزيـد من العـاطفـة والاهتمام ، بحيث تتعطل القوى العاملة عنـد الطفل المـدلل ، ويغـدو وهو يتوقع أن من واجب الآخرين أن يقدموا لـه دومـاً المزيـد من الخـدمـة ، وأن يجعلوه دوماً في مركز اهتمامهم ويكونوا بمثابة توابع تدور في فلكه .

أخي أيها الشاب ؛ نخلص مما تقدم إلى نتيجة هامـة هي أن هناك طريقين لإفساد الأطفال ومنعهم من النضج همـا : طريق الإفراط ، وطريـق التفريـط ، (ويُراد بـالإفراط المبـالغـة في العطف على الصغـار) ، (وبـالتفريـط البخل والشح في تقـديم العواطف والاهتمامات اللازمة لهم) .

إن اتباع طريقة معتدلة في حمايـة الطفل وبـذل العنـايـة الضرورية له ، ومساعدتـه على أن ينمي قـدراتـه ويضـاعف من نشـاطـاتـه ، كل هـذا يكـوّن عنـد الصغـار شخصيـاتهم ويهيئهم للنجاح والاضطلاع بالمسؤولية .

متى تتكون المسؤولية

ترى ما هو الوقت المناسب الذي نبدأ فيه بغرس بذور المسؤولية ؟... لا يوجد وقت محدد أو سن معينة تصلح لتكون بداية حاسمة لتعلم المسؤولية ، لدى جميع الأطفال ، وذلك لأنهم يختلفون في مقدار نموهم الذي يحققونه خلال سني الحياة ، فأبناء الخامسة ليسوا كلهم سواء فيما حصلوه من إدراك ونضج عقلي أو عاطفي ، بل يختلفون عن بعضهم اختلافاً واضحاً في هذه النواحي وفي سائر نواحي الحياة النفسية والاجتماعية ، وهناك قاعدة بسيطة يمكننا أن نتبنّاها ونتخذها مبدأ لنا ، ومنطوق هذه القاعدة « عندما يبدي الصغير رغبة في القيام بعمل من الأعمال مهما كانت سنه ، فإن هذا الوقت هو الوقت المناسب له كي يتعلم تحمّل المسؤولية في ذاك العمل » .

صديقي وإن لمن الخطأ أن نرجئ الأمر بدعوى أن الطفل لا يقدر على العمل كما لا يتقن عمله ، إن المهم في تعلم المسؤولية هو **الرغبة بتأدية الأعمال** ، وليس الإتيان بالأعمال ، وإن على المربين أن يدركوا هذه الناحية ، ألا وهي ضرورة تشجيع

الطفل على تحمل المسؤولية في أي زمان ومكان يظهر فيه استعداده ليقوم بالنشاط . إن ابتسامة توجه إلى طفل أو تقديم كلمة تشجيع من الأم لطفلتها عندما ترفع ذراعها فتمطط لتنظف النافذة المرتفعة أو لتلبس ثوبها بنفسها أو لتُعين أمها ، يمكن أن تكون أول درس يُمنح للطفل أو الطفلة في التعاون أو في تحمل المسؤولية .

فمن يبدي رغبة بأن يترك البزازة ليتغذى من الفنجان أو بالملعقة ، فتلك فرصة يجب اغتنامُها ، وحين ترغب البنت بمساعدة أمها في ترتيب الغرف ، وحين تظهر البنت رغبتها (أو يُظهر الصبي استعداده ليرتدي ملابسه بنفسه ، أو في إطعام نفسه بنفسه) ، فكل هذه الرغبات تُعد دلالات طيبة على النمو ، وعلى الحاجة إلى الاستقلال وتحمل المسؤولية ، وينبغي على الأم أن تستغل هذه الفرص فلا تؤجل الوقت كي يقوم الطفل بفعل ما يرغب فعله ، إنها إذا أجلت الوقت فتطعم ولدها حتى السنة السابعة مثلاً ، وظلت تتابع التدخل في ارتداء الثياب والأحذية حتى هذه السن ، فمن الجائز أن يستعذب

الأطفال خدمة الآخرين لهم ، فينشؤوا متواكلين ضعاف الهمة محدودين في نشاطهم ، ولا يدركون المسؤولية .

إن الأطفال الذين يسمح لهم ذووهم بأن يتحملوا المسؤولية والاستقلال في وقت مناسب تنمو عندهم الثقة بقدراتهم وبأنفسهم في مجابهة مواقف الحياة وصعوباتها .

الفطام النفسي

ونقصد به انتقال الفتى في فترة المراهقة ، من سلوك التبعية للآخرين ، إلى السلوك الاستقلالي والشعور بأنه جدير بكل ما يوكل إليه ، وبأنه قوي وناجح ويستطيع أن يكفي نفسه بنفسه .

وقد تحرص بعض الأمهات أحيانا على أن يظل الأولاد بحاجة إليهن ، ولذلك لا يعملن أي شيء يساعد على نمو الروح الاستقلالية عند أولادهن ، أما الآباء فالكثيرون منهم يخشون على مكانتهم في الأسرة ويتصرفون بالطريقة التي تحفظ لهم هذه

المكانة وتمنع أولادهم الفتيان والمراهقين عن الشعور بالاستقلال وممارسته .

والأمر الجدير بأن يُلاحظ هنا هو معنى الفطام النفسي فهو يقوم على عدم الاعتماد على الكبار ، وليس على عدم الاحترام ، والفتى الذي يستقل بشخصيته ليس ذاك الذي لم يعد يحترم أبويه أو ذويه الكبار ، وإنما هو الذي لم يعد يتكل عليهم في تأمين حاجاته ودعم كيانه وذاتيته ، وبهذا المعنى ليس من حرج على الآباء والأمهات أن يستقل أبناؤهم أو يحرزوا تقدماً في مجال الفطام النفسي والاستقلال الذاتي .

وإذا شاء الآباء أن تظل لهم المكانة والاحترام في نفوس أبنائهم المراهقين ، فلا ينبغي أن يتخذوا أسلوب المقت والترهيب ، بل يجب عليهم أن يتخذوا مواقف قوامها الثقة والإيمان بالفتى والفتاة ، وأن يوفروا لهم الفرص النافعة التي تؤدي إلى اكتساب الخبرات ، وإنضاج الذات ، وسن المراهقة ليس وحده هو السن المفضل من أجل تحقيق ذلك كله بل إنه قد يسبق المراهقة أو يتمشى معها .

إن التشجيع والإيحاء بالنجاح والاعتماد على المراهقين ومنحهم الثقة (المصحوبة بالمراقبة الذكية) كل هذا جدير بأن يساعد الآباء والأبناء في وقت واحد ، فالأبناء ينضجون وتزداد ثقتهم بأنفسهم ، ويصبحون مسؤولين واعين ، والآباء يحتفظون بمكانتهم اللائقة وقيمتهم الاعتبارية وما أروع أن يمتدح الوالد سلوك ولده ، وأن يحترم تصرفاته أمام زملائه ... وأن يتحدث إلى الصغار والشباب وكأن ولده واحد منهم ، وكلنا يذكر الفرحة العارمة التي اجتاحت نفوسنا حين سمح لنا آباؤنا بالخروج مع رفاقنا في نزهة على الأقدام نظمتها جماعة كريمة أو جمعية ... أو حين أمسكنا بمقود السيارة لأول مرة ...

موقف واعٍ ومسؤول

يطلب فتى في السادسة عشرة من أبيه أن يسمح له بقيادة السيارة لأول مرة ...

والأب العاقل يجيب : بالتأكيد ليس لدي مانع فأنا أثق بمهارتك وقد علمتك القيادة بنفسي ومع ذلك فأنت تعلم أن السن الذي تسمح به الأنظمة محدد بالثامنة عشرة ، ومن ناحية

أخرى فهناك نصيحة واحدة وأظنني لست بحاجة لذكرها (لأني أعلم مقدار وعيك) ، وهي أنه لا اندفاع ولا طيش ... فنحن لسنا من طينة الشباب الطائشين !!.

وسأبقى معك في السيارة حين تقودها لأن القوانين لا تسمح لسنّك بذلك على الرغم من ثقتي بك .

صديقي أيها الشاب دعني أقدم لك ملاحظات عجلى وسريعة حول :

مسؤولية الإنسان في الإسلام تُعد سن البلوغ في الإسلام هي سن المسؤولية ، وقد أطلق الفقهاء على هذه الفترة بسن التكليف ، في حين نرى أن البلوغ يتميز عند كثير من المجتمعات المعاصرة ، بأنه سن التمرد والثورة على الآباء والتراث ، نجده في أمتنا سن النضج والتحفظ واستلام المسؤولية ، وفي هذه السن لا يكتسب الفتى شكل الرجولة وهيئة الرجال وحسب بل يكتسب معانيها وأفعالها ، ومضاءَها ومنجزاتها وتبعاتها ويقوى عنده الشعور بالواجب (واجب المرء تجاه الخالق عز وجل

ـ وتجاه أمته ودينه وحضارته ـ وتجاه أسرته والأقربين وتجاه نفسه والإنسانية التي ينتمي إليها) .

إن المسلم الذي ينال حظه من حسن التربية وأشبع بمحبة أبويه وأسرته ، وأدرك حرص الشريعة على حمايته ورعايته وتنشئته كريماً معافى ، نقياً طاهر اليد والقلب ، يتفتح شعوره بالإيمان ويتعاظم إحساسه بمراقبة الله له في السر والعلن .

إنه يعلم أن حياته على هذه الأرض فرصة لا تتكرر ، واليوم الذي فاته لن يعود إليه ، ولذلك يسارع المؤمن الكيس إلى أن يغتنم صحته قبل سقمه ، وشبابه قبل هرمه ، وفراغه قبل شغله ، وحياته قبل موته . وتراه يحاسب نفسه كل يوم بل كل ساعة عما يقول ويفعل ويعمد إلى إصلاح ذاته وبناء شخصيته . ويرى أن ثمة معايير كثيرة يجعلها ناظمة له ولسلوكه ، ولعل أهمها : مسؤولية العلم ، والعمل ، العلاقات الاجتماعية ، التبعة ، مراقبة الله تعالى ، جهاد النفس والهوى ، الحرص على الحياة في سائر وجوهها .

مسؤولية العلم قال الله تعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ [طه : ١١٤/٢٠] ، وقال : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة : ١١/٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ [فاطر : ٢٨/٣٥] .

ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها » متفق عليه .

ـ وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال لعلي رضي الله عنه : « فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » متفق عليه .

ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهَّل له طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع ، وإن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض

حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

مسؤولية العمل لا ينفصل العلم عن العمل في دين الله قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [الصف : ٦١/٣] .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلتُ له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » متفق عليه .

فإذا كان هذا ما يفعله رسول الله صلوات الله عليه فأين نحن من رسول الله ؟؟..

ورد في الأثر عن النبي ﷺ أنه قال : « لن تزول قدما عبد حتى يسأل عن ثلاث عمره وفيم أفناه ، وعلمه وما عمل به ، وماله فيم أنفقه ومن أين أتى به » .

مسؤولية التماسك الاجتماعي يؤلف المؤمنون في تجمعهم كياناً واحداً لا ينفصم ويرتبط كل فرد في هذا الكيان بالمجموع ارتباط القوم في السفينة ، يقرأ المسلم في كتب علم الاجتماع الشيء الكثير عن علاقة الفرد بالجماعة فلا يرى أبلغ ولا أبدع ولا أحلى من مثال السفينة في حديث النبي ﷺ ، حيث ورد فيه عن « قوم استهموا على سفينة فاتخذ بعضهم مكانه في أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَن فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوا جميعاً » رواه البخاري .

وجاء عن النبي ﷺ قوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

مسؤولية التبعة قال تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ، ولقد فتنا الذي من قبلهم

فليعلمن الله الـذين صـدقـوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبـوت : ١/٢٩ ـ ٣] .

وقـال تعـالى : ﴿ أم حسب الـذين اجترحـوا السيئـات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحـات سواءً محيـاهم ومماتهم سـاء مـا يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بـالحـق ولتُجـزى كل نفس بما كسبت وهم لا يُظلمون ﴾ [الجاثية : ٢١/٤٥ ـ ٢٢] .

وقـال تعـالى : ﴿ كلُّ نفسٍ بمـا كسبت رهينـة ﴾ [المدثر : ٣٨/٧٤] .

إن الشعور بـالتبعـة والوقـوف بين يـدي الله هـو الفيصـل الحـاسم الـذي يفصـل بين الإنسـانيـة والحيـوانيـة ، إنـه جـوهر المسؤولية بلا منازع .

مسؤولية المراقبـة قـال تعـالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ [الحـديـد : ٤/٥٧] ، وقـال تعـالى : ﴿ إن ربـك لبـالمرصـاد ﴾ [الفجر : ١٤/٨٩] ، وقال جل من قـائل : ﴿ يعلم خـائنـة الأعين وما تُخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩/٢٤] .

وقـــــال : ﴿ الـــــذي يراك حين تقــوم وتقلُّبـــــكَ في السَّاجدينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩/٢٦] .

عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » .

أُثر عن بعض الصـالحين : أعلى المراقبـة أن تصل إلى مرتبـة الإحسان ، وإن الإحسان أن تعبـد الله كأنـك تراه فـإن لم تكن تراه فإنه يراك .

المراهق والعمل

صديقي الشاب : قل لي ماذا تعمل ، أقل لك مَن أنت .

أُثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : « يعجبني الرجل ، فإذا علمتُ أنه لا يعمل سقط من عيني » .

وفي معالجة موضوع العمل سنتناوله من خلال النقاط الآتية :

١ ـ تحديد مفهوم العمل .

٢ ـ فلسفة العمل وأهميته .

٣ ـ العمل وعلم النفس .

٤ ـ مراحل العمل في العمر .

٥ ـ التربية والعمل .

٦ ـ الصحة النفسية للعمل .

أولاً ـ مفهوم العمل

العمل هو إحداث أثرٍ في شيء موجود بالفعل بقصد الانتفاع به ، ومثاله : التأثير في الفلز عن طريق تنقيته وصهره لتحويله إلى قفل مثلاً أو مفتاح .

وهناك :

عمل الطبيعة ـ عمل الحيوان ـ عمل الإنسان .

هذه مستويات ثلاث للعمل : أدناه عمل الطبيعة ومثاله حت الأمواج للصخور فهذا عمل طبيعي ، ويبدو لأول وهلة أن الطبيعة لا هدف لها من عملها ، أو لعلها تضرّ ولا تنفع فالموجة العاتية قد تقلب مركباً فيه رزق لمحتاجين ، لكن قليلاً من التبصر يجعل الإنسان يقول : « إن النظر إلى الموضوع من زاوية جزئية ضلال وخطأ ، والقضية الهامة الجديرة بالسؤال : هل وجود الأمواج في البحار نافع أم ضار ؟؟... إن المهم هو كليات الأمور ولا قيمة للجزئيات التي لا حدَّ ولا عدد لأشكالها ، والجواب أن وجود الأمواج في البحور ضروري منعاً لفساد الماء

وتفسخه ، ومن الخطأ الظن أن الطبيعة تتناقض في الجهات الكلية ، أو القول : أن الطبيعة لا تبالي بالحياة ولا بالإنسان . والحقيقة أن عمل الطبيعة حينما يُنظر إليه بالمنظار الكلي ، عمل حكيم وخير ، والعلماء المتعمقون أقدر من غيرهم على مشاهدة الحكمة التي تكمن خلف الظواهر ، فلا يدركها إلا العالمون ، قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : ٢٨/٣٥] .

عمل الحيوان إن عمل الحيوان أرقى من عمل الطبيعة الصماء فالكلب الذي يحرس المنزل يستجيب لصوت الخشيش الذي يسمعه في مقربة من المنزل ، واستجابته أكثر وضوحاً من عمل الطبيعة وبالطبع فإن الكلب الحارس قد عُلم ودرب على الحراسة ، والكلاب البرية لا تفعل فعل الكلاب المدربة ، وهذا يعني أن الحيوان يروّض ويدرب ، أما الطبيعة فكما قال أرسطو لو حاولت أن تدفع الحصاة إلى أعلى مئات بل آلاف المرات فلا بد أن تقع إلى الأسفل ، وهكذا فإن عمل الحيوان تأدية يرتقي بتأثير الإنسان ، لكن الطبيعة الصماء حين تطغى فهي

كثيراً ما تضر ، كما تفعل العواصف والفيضانات ، والإنسان يتعلم كيف يتوقاها ، والمهم أن نعود فنقول :

إن الطبيعة في مستواها الكلي ذلول طيعة مسخرة للإنسان

عمل الإنسان يختلف عن عمل الطبيعة والحيوان في نواح كثيرة فعمل الإنسان :

١ ـ **هادف** وإن انعدم الهدف أصبحت حركات الإنسان خرقاء نراها عند فاقدي العقول .

إن الهدف أو الغرض ضروري للعمل حتى يسمى إنسانياً ، وعلى هذا فالإنسان (الذي يعمل بلا هدف يعمل كالحيوان) ، وبالهدف تتحول حركاته إلى عمل ، ومن البديهي أن نقول : إن الأعمال الإنسانية تقع في مستويات تبعاً لأهدافها ، وهكذا يتبين حتى للغربيين أن فتوح الإنسان البلاد قد حولها من جهالة إلى علم ، ومن عبادة الإنسان للإنسان إلى عبادة الإنسان لله ، وهذا هو سر التوحيد الذي حمله المسلمون إلى غيرهم ، وأما الغرب فإنه في الحروب الصليبية التي قام بها في التاريخ القديم

تجاه المسلمين وفي المكاييل المزدوجة في تعامله معنا بالعصر الحاضر ، فإنه يؤكد في آنٍ واحد إنسانيته مع أهل قومه ولا إنسانيته معنا ، فالإنسانية في الإسلام لا تتناقص أو تتشكل بشكلين .

٢ ـ عمل الإنسان حر ليس الإنسان آلة أو أداة صماء كالطبيعة (إن الطبيعة لا ترتقي لأنها مطبوعة وهكذا أنشأها الخالق) ، وليس الإنسان كالحيوان (الذي يمكن أن يرتقي بعض الشيء) ، لكنه يظل عاجزاً عن أن يغير من طبيعته الحيوانية (فالحمار لا يمكن أن يتصرف كالخيل الأصيلة) ، ولكنه يستطيع أن يكون حماراً أرقى بالترويض ، وكذلك فاللبوة المولودة تشبه الهرة حين تربى ، لكنها ترجع إلى طبيعتها حين تكبر وتنضج وغالباً (أو دائماً) ما تفترس من يربيها ويدللها .

٣ ـ عمل الإنسان معقول والعقل هو الذي يجعل الإنسان إنساناً ، وإذا قلنا : إن العمل الإنساني هادف وحر فالعقل هو الذي يضع الهدف ويرعى الحرية ، وهكذا فالإنسان الذي

يركب رأسه ليرد على الصاع مئة صاع ليس إنساناً ـ كما يفعل نزلاء المشافي العقلية وتفعل إسرائيل (التي تؤكد أنها شعب يخلو من السواء بل مغضوب من الإله)[(١)] .

والمهم هو أن العقل حين ينظم العمل لا يتدخل بكل طاقاته ، وإنما بما يُسمى بالنية ، فالنية هي سر العمل ، وفي الحديث الشريف : « نية المؤمن خيرٌ من عمله » .

ثانياً ـ فلسفة العمل

العمل جوهر الإنسان ومعيار إنسانيته في آن واحد ، إن الكرامة التي أنشأ الله تعالى عليها البشر ، تتحقق في قيامهم بالعمل[(٢)] الصالح .

---

(١) فإنها ترد على صاروخ يصلها من لبنان إلى تحريك الجنود والدبابات والقوى البرية والجوية والبحرية وتروع الآمنين ، وتقول : (إن قتل يهودي واحد يساوي أو يرجح قتل مئة مسلم) .
ويجب أن نستغفر الله تعالى من الذنوب الكثيرة التي اقترفناها ـ نحن العرب المسلمين ـ حتى ابتلانا الله تعالى بها .

(٢) قال تعالى : ﴿ لقد كرمنا بني آدم ﴾ [الإسراء : ١٧/٧٠] ، وقال : =

بالعمل نثبت وجودنا ونؤكد إنسانيتنا ، بالعمل نحقق ما يجب أن يتحقق (وهذا هو الوجه العاطفي للعمل) ، وبالعمل ننجز ما نفكر بإنجازه (وهذا هو الوجه العقلي للعمل) .

والذي يدرس ويتعمق في نفسية الإنسان الجاهلي ونفسية المسلم الملتزم ، يلمس المعجزة العظمى للإسلام ، ماثلة في أن العربي كان يفتخر بالنسب لا بالعمل ، فتحول بالإسلام إلى إنسان يفتخر بالعمل الصالح .

قال شاعر العرب :

أبي بنى لي في المكارم أولي ونفختَ كيرك في الزمان الأولِ

وإن العمل الصالح الذي واجه به العرب المسلمون أقواماً كالفرس يجعل الفارسيَّ رجلاً كالخوارزمي يقول : « لئن تسبَّني بالعربية فذلك أفضل لدي من أن تمدحني بالفارسية » .

= ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين : ٩٥/٥] .

ثالثاً ـ العمل في علم النفس

بالعمل نأكل خبزنا ، وبالعمل نصنع ذاتنا ومصيرنا ، وأعمالنا تؤكد شخصياتنا ، يقول أحدهم : « إن ما نصنعه يصنعنا » وهكذا تؤكد الأعمال استعداداتنا لفعل الخير فنصبح خيرين أو أشراراً ، بالاعتياد لا بالاستعداد ، ويميز علماء النفس (في مستويات العمل) بين العامل الماهر ، والعامل غير الماهر على أساس أن المهارة تقوم على دراية تقنية ، بتحريك الآلة المعاصرة في الصناعة ، وتتطلب ارتقاء الإنسان في دراساته إلى التخرج من الجامعة ومافوقها ، وأما العامل غير الماهر فهو ينفذ ما يطلبه الأول منه . والذي يهمنا نحن هو مستوى الإتقان ، فالإتقان مطلوب على السواء في كلا مستويي العمل ، ولا قيمة لعمل غير متقن .

مراحل العمل

يُميِّز عمل المراهق عن عمل الطفل ، فعمل الطفل عبارة عن منعكسات تنضاف إلى بعضها وترتقي لتصبح منعكسات

شرطية ، إن الطفل الرضيع الذي تألم من وحدته ، يأخذ بالبكاء فإذا سمع صوت أمه يقترب منه أو سمع صرير الباب ، فإنه يستجيب بمنعكس الصمت والسكوت ، إذا سارعت إليه أمه ، وأما إذا أهملته فإنه يستجيب بمنعكس جديد هو العودة إلى البكاء بشكل أشد وحين يكتسب الطفل اللغة فإنه يستجيب بالسكوت إذا أشارت أمه بإصبعها بلزوم الصمت أو تخفيف البكاء ... وهكذا تتجمع المنعكسات والمنعكسات الشرطية عند الصغير مع بعضها حتى تصبح عادة ، وتتكاثر العادات فتتحول إلى إرادة بفعل النضج العقلي والاجتماعي .

وأما عمل المراهق فإنه في معظمه إرادي تسوده النية لتحقيق أهدافه بحريته ، فالحرية بهذا المعنى ليست في التفلت من النوايا الطيبة ، وإنما في تحقيقها والارتقاء بها . كان الطفل يؤمر فيعمل أما المراهق فإنه يأتمر بأوامر نفسه .

وإذا اضطر الطفل إلى العمل قبل وصوله إلى المراهقة (بسبب وفاة معيله أو غيابه) ، فإنه يُعد سيء الحظ من الناحية النفسية والاجتماعية ، ويتعرض إلى توقف نموه الجسدي

في هذا العضو أو ذاك ، ومن الناحية الاقتصادية يضطر إلى العمل بأخفض الأجور .

وبالمناسبة فإن العائد الاقتصادي للأعمال لا يتناسب (غالباً) مع الجهد المبذول ، والمشقة في الأداء ، بل يرجع إلى نظام آخر ، يقوم هذا النظام خلافاً للتوقعات ، فالعمل اليدوي أشق من العمل الفكري ، ولكن مردوده المادي أقل . وهكذا نجد أن الأعمال الشاقة (مثل العمل في المناجم ، وحمل الأمتعة بالأيدي)... فإنه يعطي العمال الأجور الدنيا ، أما الأجور العليا فتكون للعمال العقليين ، ولهذا فإن انتساب العمال إلى اتحاد العمال يحمي قيم العمل ويدفع عنهم الحيف والظلم .

رابعاً ـ التربية والعمل

تُعنى التربية في موضوع العمل بنواح كثيرة أهمها :

١ ـ وعي العمل .

٢ ـ مواقف المربين .

٣ ـ التوجيه والاصطفاء في العمل .

وعي العمل

ويُقصد بالوعي تقدير العمل وتقبُله وتعميمه في سائر نواحي الحياة . إن الشعب الراقي بحق هو الذي ينشأ أبناؤه على تقدير العمل منذ الطفولة حتى غاية العمر . والنظر إليه بمنظار الضرورة والتقديس ، والأمثلة كثيرة في تاريخنا وفي تاريخ الأمم المعاصرة ، فالعرب لم يصبحوا أمة جديرة توجه الدنيا بمجرد التفكير النظري ولكن بالعمل الدقيق المستمر الدؤوب الذي حثهم عليه الإسلام ، وقد وعوا الآيات الكثيرة في الحض على العمل والكسب الحلال :

● فهذا النبي نوح تعلم صنعة السفن طاعة لأمر الله ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ [المؤمنون : ٢٧/٢٣] .

● وهذا سيدنا داوود الذي أخبرنا القرآن عنه قائلاً ﴿ وعلمناه صنعة لبوس[١] ﴾[الأنبياء : ٨٠/٢١] و ﴿ أن اعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾ [سبأ : ١١/٣٤] .

---

(١) اللبوس : الدروع .

● وهـــذا نبينـــا محمـــــد ﷺ كان يرعى الغنم ويسعى بالتجارة .

● يقول تعالى يحض المؤمنين على العمل ﴿ هو الـذي جعل لكم الأرض ذلـولاً ، فـامشـوا في منـاكبهـا وكلـوا من رزقـه ﴾ [الملك : ١٥/٦٧] ويقول : ﴿ فـإذا قضيت الصلاة ، فـانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ [الجمعة : ١٠/٦٢] .

● وقـد استـوعب العرب المسلـون مـا ذكره النبي ﷺ في أحاديثه .

« إن أفضل الكسب كسب الرجـل من يـده » رواه الإمـام أحمد .

و « إن الله يحب العبد المحترف » رواه الطبراني والترمذي .

و « لأن يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب على ظهره ، خير لـه من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » رواه البخاري .

● روى ابن الجوزي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي قـومـاً لا يعملـون (مثـل معظم العرب في الجـاهليـة) فقـال :

« ما أنتم ، قالوا متوكلون فقال : كذبتم إنما المتوكل على الله رجل ألقى الحبة في الأرض ثم توكل على الله ، وقال لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة »(١) .

هذا ويرتبط حب العمل في الإسلام بحب العمال . روي عن النبي ﷺ أنه اجتمع بعامل منهك تعِب فقبل النبي يده وقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » وعنه ﷺ أنه قال : « من أمسى تعباً في يومه كالّة يده أمسى مغفوراً له » .

● ولكم أود لو يجرى الآن إحصاء دقيق لساعات العمل في بلاد العرب وتقسيم عدد الساعات على عدد البشر ، وإننا نرجح أن العربي قد لا يعمل (وسطياً) أكثر من ساعة .

إلا أننا في هذا العصر نجد أن أمةً كاليابان قد خرجت من الحرب العالمية الثانية مكسورةً مهيضة الجناح ، لكن روح العمل المستعرة في نفس الياباني ، جعلت هذه الأمة تنافس

(١) راجع تربية الأولاد في الإسلام . ناصح علوان ص ١٠٠٥ .

أمريكا نفسها ، حتى غدا (الين) الياباني ينافس الدولار الأمريكي ويبزه أحياناً .

مواقف المربين :

على المربين أن يعلموا الأمور الآتية :

١ ـ لا يوجد عند المراهق ما هو أفضل ولا أطيب من شعوره بأنه كفء ويملك القدرة على العمل والإتقان .

٢ ـ على المربين أن يساعدوا المراهق على بناء ثقته بنفسه .

٣ ـ ويتطلب هذا بعض الأمور الهامة مثل الإصغاء إلى شكاوى المراهقين ، والإنصات إليهم بالعطف ، وتقديم طرق العمل الجيد ، والتنبيه على مواطن الخطأ ، دون سخرية أو استهزاء أو إشعار بأنه مقصر أو مهمل أو يحتاج إلى المقاضاة .

٤ ـ كما يتطلب اجتماعات بين الشباب وندوات للتوجيه العام .

التوجيه والاصطفاء المهني

أولاً يعنى المربون اليوم بالكشف عن قدرات كل فرد ، وإمكانياته من أجل توجيهه أو تسييره نحو العمل الأفضل الذي يصلح له .

ويقوم بمهمة التوجيه خبراء في علم النفس الصناعي والتجاري والزراعي ... ويقومون بمشاهدات دقيقة ومستمرة للطفل (منذ أن يدخل الروضة حتى نهاية الدراسة الإعدادية والثانوية) ، وفيها يستعينون بالأطباء والفيزيولوجيين والخبراء في سائر المهن لدراسة حواسه ، وملاحظاته ، واهتماماته ، وهواياته لمعرفة ما يسره ويبهجه وما يسوؤه ويحزنه ، ومعرفة مهنة ذويه وأبويه ورغباتهم في أولادهم ... إلخ . فهذا هو التوجيه المهني .

ثانياً يحدد خبراء كل مهنة الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح نفسه للعمل في كل مهنة ، أو كل معهد مهني ، فمعهد الطيران لا يسمح لكل راغب أن يتقدم ويرشح نفسه للتخصص في عالم الطيران إلا إذا أثبتت المشاهدات سلامة الأعضاء الهامة

في الطيران مثل تحمل الجسم تغيرات الضغوط الجوية ، ومقاومة الصعوبات الناجمة عن الطيران مثل التعرض إلى الدُوار ، وتوفُر حواس سليمة وقلب قوي وأوعية دموية قوية ... إلخ .

وهكذا فبينما يفتش الموجهون ويكشفون عما يصلح للفتى ، فالغاية هنا معرفة الإنسان وهناؤه ، فإنهم يسعون في الاصطفاء للكشف عما يصلح للمهنة ، فالغاية هنا تحقيق النجاح في المهنة وأرباحها .

صديقي الشاب وإذا سألتَ عن :

الصحة النفسية لعمل المراهق قلتُ لك : تهتم الصحة النفسية للعمل في مرحلة المراهقة بنواحٍ كثيرة لعل أهمها ما يلي :

١ ـ توفرُ تناسقٍ وتفاهم بين المراهق وعمله .
٢ ـ توفر الإشباع النفسي وانعدام أسباب الكآبة والتعب .
٣ ـ انعدام وجود معوقات تحول دون استمرار المراهق بالنمو الجسدي أو النفسي بسبب العمل المبكر .
٤ ـ توفر تدريب كاف للمراهق يحقق نجاحه في عمله ويحول دون استغلاله أو غبنه .

٥ ـ تنبه ذوي المراهق (الذي يضطر للعمل مبكراً) إلى النواحي السابقة كلها .

٦ ـ وعلى وجه العموم هناك مشكلة ذات وجهين مختلفين :

أ ـ الوجه الأول : يدور حول السعادة في العمل ، وشعاره : إنني أعمل ما أحبه . (والمهم هو سعادتي وما يسعدني ، فهذا رأي ساذج وأناني) .

ب ـ الوجه الثاني : يدور حول الكرامة والقيمة ، وشعاره : إنني أحب ما أعمله . (والمهم هو الحياة العملية الطيبة) .

وواضح أن وجه السعادة كثيراً ما يقوم على مقياس فردي وأناني ضيق وأن وجه الكرامة يقوم على مقياس جماعي وإنساني ، وواضح أيضاً أن القرآن الكريم يحرص على الأخذ بالوجه الثاني ، ومصداقه في قوله تعالى : ﴿ من عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أُنثَى وهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً ولنجزينَّهُم أجرَهُم بأحسنِ ما كانُوا يعملُون ﴾ [النحل : ٩٧/١٦] .

صديقي الغالي : معروف بين الناس أننا بالعمل نكسب

مالاً ، والحق أننا بـه نكسب أنفسنـا قبل المـال والثراء ، ألا ترى أن الذي لا يعمل يفقد ارتقـاء قواه وطـاقـاتـه وكل مـا يميزه عن الحيوانات .

الانحرافات و « المدرج الهابط »

تمهيد

يتمنى الإنسان أن تظل حياتُه وحياة مَن حوله سوية متفاهمة ورضية على الدوام ، لكن هذه الأمنية تتعرض إلى معوقات شديدة أو بسيطة ، تجعل الحياة صعبة أو بعيدة عن السواء ، والملحوظ أن الصعوبات ليست على درجة واحدة ، بل تتدرج من الأدنى والأوسط إلى الإشكال والشذوذ ، فإلى المرض النفسي ثم المرض العقلي . وها نحن نذكر مدرجاً اقترحه بعض علماء النفس لتصوير الانحرافات .

المدرج الانحرافي

يبدأ هذا المدرج بالانحراف البسيط ثم يتعاظم ويشتد فيصل إلى الأمراض النفسية ، على النحو الآتي :

١ ـ **تصرُّف مستهجن** (مثل الذي يحدّث نفسه أو الذي لا صديق له) .

٢ ـ **مشكل سلوكي** مثل تبول في السرير وتلعثم أو تأتأة .

٣ ـ **سلوك مُشِكل عام** مثل سيطرة الانفعال والإحساس بالغربة .

٤ ـ **مرض نفسي** مثل الوسواس والهستيريا .

٥ ـ **مرض عقلي** كأن يصاب المرء بالفصام أو جنون العظمة (بارانويا) أو غير ذلك .

يُلاحظ أن الوضع في الدرجة الأولى بسيط وقد لا يكون أكثر من عادة سيئة تثبتت ، وأن الوضع في الدرجة الثانية ما زال بسيطاً وقد يطول ويشتد ، أما الوضع المرضي فيظهر في الدرجتين (٤) ، (٥) .

أيها الشاب الصديق ، وبعد التعرف على هذا المدرج نتوجه بالسؤال الآتي :

« ما السَّواء وما الشذوذ ؟... أو ما الفروق بين السوي والشاذ من الناس ؟؟ » .

الجواب إنه أمر شاقّ جداً ولكنه مشوق ويحسن الاطلاع عليه .

فمن المراهق السوي ؟؟... اقترح بعضهم في تعريف السوي بأنه « الشائع والمنتشر » ، والشاذ ضئيل الانتشار أو منعدم المثيل ، مثال : درجة حرارة الجسم السوية هي (٣٧°) مئوية ، فهي الشائعة لدى معظم أبناء البشر إن لم نقل جلهم أو كلهم .

ومن الواضح أن تحديد السوي بما هو شائع (في الأمور المادية القابلة للقياس) سهل ، لكن الأمر يختلف فيما يتعلق بالأمور المعنوية ، فإذا قيل : إن الأنيق هو إنسان يقع بين طرفي (المتفاني في مظهره) ، (والمهمل لشكله وثيابه) لكن الشخص المتأنق الشخصية ، يختلف من بلد إلى آخر ، كما يختلف في البلد الواحد من حي لآخر ومن حين إلى آخر . ومن فرد إلى آخر فمتى تكون الأناقة سوية ومتى لا تكون ؟؟..

قد يقال : إن الشاذ هو من يخالف الجماعة ... لكنه قد يخالفها لتفوقه لا لشذوذه ، ونحن نعلم أن الموسيقي العبقري هو الذي يملك سمعاً مرهفاً بأدق الأصوات ، ويستطيع أن يسمع موسيقاه بشكل جيد وممتاز ، ومع ذلك فإننا نجد (بيتهوفن)

قد استطاع أن يصنع أو يؤلف أروع موسيقاه بعد أن فقد السمع بالكلية ، فهل يعد هذا الرجل غير سوي خلال فترة صممه ؟؟..

ومن ناحية ثانية ، إذا كان السوي هو ما يتوافق مع الجماعة ، فهذا يعني أن (هتلر وموسوليني وبيغن) يجب أن يوضعوا في أعلى قائمة الأسوياء لأنهم كانوا يتوافقون مع جماعاتهم بشكل قوي مطلق .

ولهذا كله يرى علماء الصحة النفسية أن البحث في السوي وغير السوي عقيم وغير مجدٍ ، والأصح أن نتحدث عمن هو ناضج وغير ناضج .

إن الناضج هو الذي يعرف نفسه فلا يتصارع معها ويعرف غيره وقلما يصارعهم أو ينازعهم . فيتكيف مع نفسه ومع الآخرين ، والتكيف كما سنرى عما قليل قدرة الكائن على أن يغير ويبدل من بنائه الذاتي ، أو من بيئته حتى يصل إلى الملاءمة والتوافق معها ، وهكذا نرى أن السوي والناضج هو المتكيف ، وغير السوي الذي لا يتكيف ، فما التكيف ؟؟..

التكيف
تكيف المراهقين

تعريف : يُعرَّف التكيف بشكل عام بأنه تلاؤم الكائن الحي مع نفسه ومع الوسط أو البيئة التي تحيط به ، وهو يتضمن التآلف والتوافق بقصد التفاهم والنجاح بدلاً من التصادم والصراع .

نظرة تاريخية : اكتُشف التكيف أول الأمر في علم الحياة ثم نقله الفيلسوف (آدلر) إلى علم النفس ، كان علماء الحياة من القديم قد لاحظوا أن الكليتين تتعاونان معاً وتعملان بوصفهما أداتين متساندتين ، فإذا ضعفت إحداهما وضمرت لأسباب مَرَضية ، قامت الكلية الثانية بوظيفتها هي ووظيفة الكلية المصابة .

ثم أقبل (آدلر) فنقل فكرة التكيف من الحياة إلى

النفس . وقد أكدت ملاحظاته ودراساته أن الوظائف النفسية تتآزر وتتعاون في خدمة التكيف ، (فالذاكرة مثلاً تتعاون مع المخيلة والانتباه ينشط الإدراك في سبيل تمكين الفرد الإنساني من التفاهم مع العالم الخارجي) .

وقد لاحظ العلماء أن هناك درجات في التكيف أرقاها (التكيف الممتاز) ، وأدناها (سوء التكيف) أو فقدانه ، وهناك درجات بينهما .

التكيف الممتاز ويظهر في صور انشراح النفس وتفتح المزاج تجاه الحياة والمشكلات والناس ، وقلما تصحبه توترات ، وإذا ظهرت انتصر عليها صاحبها .

التكيف الجيد الإنسان هنا يعد من الممتازين بدرجة أقل (فمثلاً هو ممتاز في عمله ، وأقل امتيازاً في أسرته) .

التكيف الكافي تكون أعماله معقولة وهو يخلو من المشكلات الجذرية ، لكنه لا يملك طموحات ، لديه بعض الأصدقاء وهو قانع بحياته .

التكيف البائس يظهر عند إنسان أثَّرت فيه مشكلة بليغة جعلته دون الآخرين انشراحاً وإنتاجاً ، لكنه مقبول فيما عدا هذه المشكلة .

التكيف المتداعي يكون عند الإنسان يملك مشكلات حادة جداً ، تتهدد فيها قدراته وإمكانياته حتى المستقبلية منها ، وصاحبه يسير نحو المرض النفسي أو العقلي .

أخي الشاب أحدثك الآن حديثاً في منتهى النفع والمتعة في موضوع التكيف .

وعلينا الآن أن نشير إلى الصفات والمزايا التي يتميز بها الأسوياء الناجحون من الشباب في تكيفهم[1] :

١ ـ الناجح في تكيفه يتمتع بقدر معقول من الهناء والرضى .

أ ـ يعيش في حاضره .

ب ـ يتطلع إلى المستقبل بروح الأمل .

---

(١) يراجع كتابنا (سيكولوجية المرأة ومسؤولية الحمل) الجزء الثاني ٧٠٢ .

جـ ـ يستمتع بعمله .

د ـ متفائل إجمالاً .

٢ ـ وهو يثق بنفسه دون غرور وبغيره دون انبهار .

أ ـ يحترم نفسه .

ب ـ مستعد لتجريب الجديد .

جـ ـ يستخدم ذكاءه في معالجة مشكلاته .

د ـ يحترم رغبات الآخرين ويطلب منهم المساعدة حين اللزوم .

٣ ـ الناجح تمتعه صحبة الآخرين .

أ ـ يتعامل مع الناس ببساطة .

ب ـ يصغي لغيره ولا ينسى مقاييسه .

جـ ـ يتعاون مع الصغير والكبير .

د ـ ينال تقدير الناس .

٤ ـ الناجح السوي يستفيد من وجوده مع الناس ومن عزلته في آن واحد .

أ ـ إذا اضطر للعزلة يعتزل دون شقاء .

ب ـ يتحمل بثقة عمله أمام الآخرين .

جـ ـ يملك الشجاعة ليدافع عن نفسه .

٥ ـ يعيش في الواقع .

أ ـ يحاول تغيير السلبيات .

ب ـ يصبر على المساوئ ريثما تزول .

جـ ـ يفطن إلى سوء المعاملة .

أيها الشاب : الملحوظ بشكل عام أن المتكيفين بنجاح هم أخلاقيون ومتدينون وعلاقتهم بآبائهم وأزواجهم إيجابية متميزة .

الصفات أو المزايا التي تتجلى في المراهقين سيئي التكيف[(١)]

ونعني بهذه الفئات الأفراد السليمين في صحتهم النفسية ، لكنهم لم يقعوا في الاضطراب النفسي ولم يصلوا إلى درجة المرض ، وأهم صفاتهم هي :

(١) المرجع نفسه ٧٠٩ .

١ ـ أن واحدهم يكون في حالات كثيرة من سيئي الظن بالآخرين .

أ ـ ينظر بريبة إلى أصدقائه .

ب ـ يظن الناس يتعمدون أذاه .

جـ ـ يظن أن مدرسيه يتحاملون عليه .

د ـ يشكو من عدم الإنصاف .

٢ ـ قد يتخذ مواقف النفور والكراهية .

أ ـ يكره لمعان الآخرين .

ب ـ يقلل من أهمية جهود الأصدقاء .

جـ ـ تغضبه الجوائز التي توزع للآخرين .

د ـ يفسر سلوك غيره بالأذى والأنانية .

٣ ـ تثبط همته بسرعة .

أ ـ يحس بالفشل وهو ما يزال في البداية .

ب ـ يفتقر إلى الحماسة .

جـ ـ يشك بامتلاكه الاستطاعة .

د ـ يتحدث عن أخطائه بوفرة .

٤ ـ أميل إلى المشاركة والشغب .

أ ـ يحاول استغلال ضعف الآخرين .

ب ـ يلذ له إرباك الناس .

جـ ـ قد يتشدق بإتيانه ما يمجه الناس .

د ـ يصر على أنه أفضل من غيره .

٥ ـ قد يكون متطرفاً في سلبيته .

أ ـ فقد يتقبل رأي الناس فيه دون نقاش .

ب ـ أو يتقبل بغير نقاش مواقفهم أيضاً .

جـ ـ وقد يرفض دون نقاش ما يُسمع أو يقال .

د ـ يرى أنه يستحيل إصلاح الأمور بشخصه وبالبيئة .

٦ ـ قد يكون معتل الصحة في معظم الأوقات .

أ ـ يطلب إعفاءه من اللعب والعمل مع غيره .

ب ـ ينتقل ألمه من جهة إلى أخرى في جسمه .

جـ ـ يميل إلى الشكوى من الألم والتحدث عن أوجاعه .

وبالطبع فإنه لا يجوز التعجل بإسباغ صفة سوء التكيف لمجرد توفر صفة واحدة أو اثنتين مما ذكرنا .

والملحوظ بشكل عـام أن هـذه الفئـة ، سلبيـة غير موثوقـة بإيمـانهـا قـد يكون أفرادهـا أخلاقيين مع شيء من الاضطراب ، وعلاقاتهم بآبائهم وأزواجهم تحتاج إلى مراجعة وتصحيح .

الانحرافات الأخلاقية والقانونية

جنوح الأحداث

يقصد بالجنوح لغةً الانحراف عن الصواب ، استعمل هذا اللفظ محدثاً بالعربية ترجمةً لكلمة (Délinquancé) ، وقد قام خلاف بين العلماء في تحديد معنى الجنوح .

فرجال القانون يختلفون عن علماء الوراثة ، وعن علماء النفس ، وعلماء الاجتماع .

يرى رجال القانون القدامى الجنوح بأنه نوع من الإجرام الذي يستوجب العقاب (هم ينظرون إلى الفعل لا إلى الفاعل) ، صغيراً أم كبيراً ، ملزَماً أم حراً ...

ويرى رجال القانون المحدثون أن الجنوح مجرد ضلال أو زيغ يستوجب الإصلاح والتقويم .

أما علماء الوراثة القدامى فيرون الجنوح يتم انتقاله بالوراثة ، بسبب سوء تكوين الفتى .

وأما علماء الوراثة المحدثون فيرون أن الاستعداد الوراثي ليس أكثر من قابلية تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، (ولهذا نرى أن أسراً معينة يكثر فيها عدد المجرمين ، أو عدد الفنانين) .

واليوم يسعى علماء الوراثة إلى اكتشاف مورثات (جينات) للجريمة والعدوان وقد يوفقون إلى ذلك .

وأما علماء الاجتماع فيرون أن الجانحين أطفال وقعوا ضحية الجماعة التي تحيط بهم (حي فقير ، رفاق سوء .. إلخ) .

وأما علماء النفس فيرون أن الجنوح ليس عملاً آلياً ، ولا تصرفاً وراثياً ، وإنما هو سلوك ناتج عن عمليات عقلية لها أسباب ظاهرة ، وأسباب خفية ، والجانح في نظرهم خاضع لعملية معقدة شعورية أحياناً أو غير شعورية ، فالجنوح استجابة (أو رد فعل) لمؤثرات يكون فيها الحدث مدفوعاً إلى

ارتكاب الحادث ، وسبب هذا يرجع إلى الانحراف الانفعالي والعقد النفسية العميقة والقصور الذهني والعقلي .

الانحراف الانفعالي

ينحرف الأطفال أو الفتيان الجانحون لأنهم ـ في معظم الأحوال ـ لم يكتسبوا السلوك القويم ، فهذا السلوك القويم ليس فطرياً بل يُكتسب اكتساباً ، فالصغار لا يلدون بضمائر حية ولا جامدة (وصحيح أن الجنين يكتسب من أمه الاستعداد أو الإمكانية للفعل ، لكنه لا يكتسب الأفعال) ، ولذلك يمر المولود بتجارب كثيرة تجعله يواجه صعوبات حتى يكتسب ما ينبغي أن يُكتسب وإذا لم يحصّل الأجود وسلك الطريق الأسوأ فإن الباحثين يعزون ذلك إلى أمور كثيرة أهمها :

١ ـ عجزه عن إصلاح نفسه بنفسه .

٢ ـ افتقاره إلى الفهم الصحيح وإدراك ما يجب وما لا ينبغي .

٣ ـ حبه الاستطلاع وميله إلى الفضول وتجريب أمور كثيرة .

٤ ـ حبه للظهور .

٥ ـ ملله من الهدوء .

٦ ـ غضبه وثورته إذا مُست أشياؤه بغير إذنه .

أولاً ـ العجز عن إصلاح الذات : الطفل كائن مغلق على ذاته ، وقد يظل هذا الانغلاق بسبب قسوة البيئة وارتيابه بمن حوله ، في حين أن الانفتاح يتم للأطفال الذين أُحسن إليهم ، وهكذا فالطفل (الذي يخطف من غيره شيئاً ما) لا يفعل ذلك لمجرد أنه مؤذٍ بل لأنه لا يدري كيف يتصرف (اللعبة التي لأخته حلوة فلماذا لا يخطفها ؟..) . وهكذا يقتضي الأمر أن يُعلَّم الصغير الاستئذان ، والأسرة العاقلة لا تميز أحد الأطفال عن إخوته (كأن تقدم الهدايا للبعض وتمنعها عن الآخرين) ، « اعدلوا في أولادكم حتى في القُبل » حديث شريف .

ثانياً ـ الافتقار إلى فهم القواعد الاجتماعية إن الدين والعادات والأعراف والالتزام بالسواء أمور هامة ، ولكنها موضوعة للكبار ولكن الذي يجري أنه قد لا يتوفر لها بأن تنتقل من الكبار إلى الصغار ، إن أي طفل قلما يفهم لماذا يجب

أن يكفَّ عن الصراخ واللعب في أثناء قيلولـة أبويـه ، وإذا لقي زهوراً في حديقة عامة مال إلى قطفها (وخاصة إذا وُجد أحداً يفعل ذلك من أهله) ، ومالم يتوصل الصغار إلى اكتساب هذه المعـاني والتعـود على ضبـط النفس ، فسيظلـون خـارج دائرة السـواء ، وهكـذا يترتب على الـوالـدين تعليم ولـدهم القـواعـد الناظمة للحياة ، مع العلم أن الأطفـال يفهمون ويـدركون أكثر مما نتوقع ، إذا اطمأنـوا ووجـدوا من ينزل إلى مستـواهم ويعلّمهم بتلطف .

ثالثاً ـ الفضول وحب الاطلاع : يتعلم الأطفال الكثير من الأشيـاء بطريق الفضول ، وعلى الوالـدين أن يعلموا أن الفضول ليس شيئاً واحـداً بل هنـاك نوع مقبول وجيـد وآخر سيء وغير مقبـول ، فمثـلاً (سكب الحبر على السجـادة) أمر سيء وخيرُ طريقة لتلافي هذا أن يتوقع الأبوان احتمال أن يمد الطفل يديـه (لا حباً بالأذى وإنما رغبة بالمعرفـة والفضول) ، ويقتضي هـذا رفع الحبر الـذي يمكن أن يسكب ورفع الأواني القـابلـة للكسر ، وإبعاد الصغير عن النار ... أو اللعب في أطراف السطوح .

رابعاً ـ حب الظهور : وقد يكون هـذا نوعـاً من أنواع إثبـات الشخصية ، في البيت ضيوف فلماذا لا يعرفوننا (هـذا هو لسـان حـال الطفـل النشيـط) ، وهكـذا يفضـل الطفـل أن يـؤذى فيُلتفت إليه ، فهذا أحلى على قلبـه من إهمـالـه ، ولـذلـك يوقع نفسه من الأرجوحة إذا تركتْه أمه .

خامساً ـ السأم والملال : أوقات الفراغ كثيرة عند الأطفال والوالدان العاقلان يفسحان المجال أو المجالات التي تسـاعـد على اللعب والحركة والمطالعة وضبط النفس ... إلخ .

سـادساً ـ **غضب الأطفال** : نتيجـة الحجر عليهم والامتنـاع عن إتاحة فرص للتعبير عن ذواتهم ، ولعل أهم ما يثير غضب الصغـار أن تُمس أشياؤهم ، وقـد يبتهجون أن يعبثوا بـأشيـاء إخوتـه أو أخواته ، والأبوان العاقلان ، يتيحان فرص التفـاهم بـالحسنى كي يلتزم اللعب بـألعـابـه هـو وإذا أحب أن يلعب بـألعـاب أختـه مثلاً ، فليطلب منها السماح ، والحق أن الصغار يدركون الأمور ببساطة إذا لم يُثار غضبهم وتُتبع طرق الحسنى معهم .

الانحراف الخطير

يظل الانحراف عند الأطفال محتملاً ما دام يتم لمرات قليلة ، وما أمكننا السيطرة عليه وضطبه ، ويمكن السيطرة عليه باتباع التفهيم والحسنى والشروح ، وعلينا أن نلاحظ أن صغارنا يقبلون نصائحنا وتعليماتنا ما داموا يثقون بنا ، ويطمئنون إلى عدالتنا ، فسرعان ما تتفتح ضمائرهم ، ومع ذلك فإن علينا بالصبر وتكرار التعليم ، أما إذا لم يُتح للطفل مَن يقوّم سلوكه بالحسنى والتفاهم فقد يكرر الطفل الخطأ ، أو يضخم حجمه فيتحول الانحراف من انحراف انفعالي إلى انحراف خطير .

صفات الانحراف الخطير

١ ـ هو انحراف يتكرر .

٢ ـ هو انحراف صادر عن إصرار .

٣ ـ هو انحراف عام وليس خاصاً بناحية واحدة أو ناحيتين .

٤ ـ هو انحراف ذو نتائج سيئة (على علاقة الصغير بغيره قصداً) .

موجز القول : إن الانحراف إذا استمر طويلاً وأزمن وإذا اشتد وتصلب وغدا عادة ، وإذا جعل صاحبه يُلذ بأذياته ، ولا يجد من يقوّمه فإنه ينقلب إلى انحراف خطير ويدفع صاحبه إلى الجنوح . والفرق بين الجانح وصاحب الانحراف الخطير بسيط ، وهو أن الجانح قُبض عليه متلبساً وسيق إلى المحكمة ، أما صاحب الانحراف الخطير فهو لم يُقبض عليه بعد ، وإن كان يملك الاستعداد النفسي ليكون جانحاً فيقبض عليه في المستقبل .

بعض مظاهر الاضطراب النفسي الخطير وهي كثيرة أهمها :

١ ـ الطفل الذي يعمد إلى لفت الأنظار بطريقة « خالف تُعرف » .

٢ ـ الطفل الذي تُجمع على كراهته أكثرية مجموعات : (في الصف وفي الملعب وفي المطعم وفي الحي إلخ) .

٣ ـ الطفل الـذي يرفض تحمّل أيـة مسؤوليـة : (لا يقبل أن يُسند إليه شيء ..) ويظل ينقد الآخرين .

٤ ـ الطفل الذي يلوم كثيراً ولا يعجبه شيء .

٥ ـ الطفل الذي يخاف كثيراً ويخضع لأحلام اليقظة .

٦ ـ الطفل الثائر والشكاك والمستهزئ بالأسوياء .

٧ ـ الطفل الكذوب وكثير العدوان .

٨ ـ الطفل المفرط في تأدبه .

بيئة الجانحين : الأسباب البيئوية كثيرة ، وأهمها مساوئ الأسرة وسخط المربين أو غيابهم ، أو السرور بأخطاء أولادهم « إنه رجُل ألا ترون ؟ » ، يُقال هذا عن طفل يؤذي أطفال جيرانه أو يرمي بهم إلى الدرج ، ومع ذلك فاتهام البيئة على الدوام يعقد الأمور ولا يبسطها ، إذ إن هناك جانحين فقراء ، وجانحين أغنياء ، هناك جانحون داخل أسر متعلمة ، أو أسر جاهلة .

الخلاصة نستطيع أن نقول : إن الإجرام ينشأ من تحالف أو تجمُع عدة عوامل تعمل باستمرار على حرمان الفتى من المعرفة

والشعور بالأهمية ، ولا تساعده على تنمية شخصيته وتألق صحته وصحته النفسية .

كيف نساعد الجانحين

صديقي أيها الشاب : يمكنك أن تلاحظ أنه قلّ عدد الذين يوافقون على جدوى الإصلاحيات ، ففي الإصلاحية يجتمع عدد كبير من المجرمين والمرتكبين والجانحين ، فيتعلم الساذج من المعقدين والصغير من الكبار ، وأياً كانت الحال فإن الأمور الآتية تُعد أساسية (حتى حين يُدخل الفتى إلى الإصلاحية) :

١ ـ اكتشاف أسباب الجنوح في كل فتّى على حدة ، مع التثبت والوثوق .

٢ ـ مساعدة الجانح كي يدرك حاله وأي مستوىً يحيا فيه .

٣ ـ إقامة بيئة شبيهة ومماثلة للبيئة المنزلية في أمكنة الإصلاح .

٤ ـ يجب أن تنشأ علاقات من الثقة بين المشرفين والأطفال الجانحين (قوامها العطف والمساعدة .. إلخ) .

■ ـ يجب إشعار الفتى الجانح أن الدنيا لا تعمل ضده ، وأن في وسعه أن يظل صديقاً للمحترمين ما دام يحترم نفسه ويحترمهم .

٦ ـ ولا بد من تعاون الأسرة مع القائمين على الإصلاح .

٧ ـ تدريب الفتى الجانح على مهنة تدر الربح الحلال وتوفر له الكرامة ، وتضمن له العيش الرضي والرغيد ، أظنك توافق على هذا .

نمو الطاقات الروحية
عند الشباب وغيرهم

حديثنا مع أغلى الناس (الشباب) .

الإنسان جسم ونفس ، للجسم مطالبه وحاجاته وشرائط نموه ، وللنفس مطالبها وحاجاتها وشرائط نموها ، وتقتضي حكمة الحياة ... توازن الجسم والنفس وتوافق وظائفها .

لاحظنا أكثر من مرة أن الآباء والأمهات في بلادنا تهمهم مطالب الجسم ، فهم يبذلون الكثير من أجل تأمين غذاء الأسرة ومسكنها وثيابها ... ، ولا تهمهم كثيراً أو قد لا يدرون البتة بما يتطلبه تأمين غذائها الروحي .

وفي الأزمنة الأخيرة (ومن بعد الحرب العالمية الثانية) لاحظ العلماء والمتخصصون بالإنسانيات تراجع الطاقات الروحية ، وانكماشها في المجتمعات التي تسيّر الحضارة ، وتقلّص

الأمان النفسي والعافية النفسية المعنوية للأفراد والجماعات . ويبدو أن ثمة عوامل كثيرة أدت وتؤدي إلى مثل هذا التراجع : فهناك التوجُهات المادية (في العلم والعمل) ، وهناك الأزمات الاقتصادية والهزات الحربية والصراعات الثقافية ... إلخ ، بين الأمم ، وهكذا ينبغي أن نعمل على تقوية معنويات الإنسان والقيم البشرية ، ويكمن خلف هذا كله عاملان كبيران هما سرعة التغيرات ، وسوء استخدام العلم .

أما سرعة التغيرات فتظهر في نواح كثيرة لعل أهمها :

١ ـ تزايد أعداد السكان بشكل متفجر .
٢ ـ سوء توزيع السكان .
٣ ـ تقدم وسائل الاتصال .
٤ ـ تقارب المجتمعات من بعضها وتصادم وجهات النظر .
٥ ـ تحسن وسائل الإنتاج وأساليب العمل .
٦ ـ تفاوت توزيع الثروات .

وعلى وجه العموم نرى بوضوح أن ما يخلق المشكلات

لمعنويات البشر ، الزيادة وليس النقصان ، إن البشرية لا تشكو من قلة ، فهي في غنى متزايد ، ولكن عللها تنجم عن سوء التدبير وسوء التقدير . إن الأموال والأشياء المنتوجة والمتاحة بين أيدي البشر في تزايد مستمر ملحوظ ، فالمعضلة ليست قلة ما في الأيدي وإنما كثرة ما في الأطماع ، ﴿ إن الإنسان خُلق هلوعاً ، إذا مسّه الشر جزوعاً ، وإذا مسّه الخير منوعاً .. ﴾ [المعارج : ٧٠/١٩ ـ ٢١] . ولو تسنى للبشر أن يعيدوا النظر في شؤونهم على بصيرة ، وتعلموا كيف يضبطون شهواتهم ، ويفتحوا مغاليق نفوسهم وأنانيتهم[١] ، ويدركوا أن ما يُتاح لهم ويوضع في أيديهم قوامه نِعَم من الله تعالى تستحق الشكر ، وليست أدواتٍ في السيطرة والتنافس والصراع ولو تعلموا أن يستنيروا بأنوار الحكمة ، ويفتحوا أبصارهم وبصائرهم لأضواء الإيمان الحق ، لتبددتْ ظلمات القلق ، وجفتْ ينابيع الخوف والبخل وشاعت في حياتهم مظاهر الرضى والبهجة .

(١) وخاصة عندما يكونون أقوياء .

إن الأرقام الخيالية من الأموال والمبالغ التي ترصدها الأمم القوية ، لا تنفق من أجل الإنسان بل تنفق في سبيل التدمير وإشاعة الذعر والترقّب في النفوس[١] .

ولا يمكن اعتبار العلم أو تقدمه مسؤولاً عن ذلك كما يظن بعض البسطاء ، فالعلم محايد وهو يقبل أن يُستخدم في الاتجاهين (مع) أو (ضد) الإنسان .

ولو تسنى للإنسان أن يعيد النظر في سوء استخدام العلم ، وتعلّم كيف يكون الاستخدام الأفضل لمنجزات العلم إذن لتبددتْ ظلمات كثيرة ، وأمكن تقريبُ الإنسان من الإنسان ، ولو أن البشر تعلموا التسامح وبسط اليدين في الإنفاق ، وأخذوا ينفقون مما رزقهم الله في سائر الوجوه (الأقربين والجوار والسائلين ... إلخ) ، إذن لتغيّر وجه التاريخ .

وواضح اليوم أن الحضارة الحديثة ـ وهي جديرة بأن

(١) جُعلت ميزانية التسلح في أمريكا في أواخر الثمانينات تصل إلى (٦٠٥) مليار دولار .

ترتقي بمعاني الحياة ، تجعل الفرد من البشر يشعر أنه مسلوب الإرادة ، مدفوع بقوة صوب القلق والتوتر وضآلة القيمة .

المشكلة الإنسانية الكبرى اليوم تتلخص في ماهية التعليم ، فالبشر لا يتعلمون الشكر بل يتعلمون البغي والعدوان يهمهم ، أن يتعلموا طرق التنمية (من أين جاءت وحيثما كانت) ولا يسألون عن تنمية الأموال في الوجه الحق .

ماذا تجدي الحضارة من منافع إذا كان يمكن توجيهها صوب التدبير فوجهت صوب التدمير ؟؟..

ماذا يجدي البشر أن يتعلموا إذا تعلموا « أن الحياة لا معنى لها » ، « وأن الناس ذباب سريع التجمعُ والتباعد » . على حد قول ماركوس أوريليوس .

أو اعتقدوا أن « البشرية سحابة دخان » و « أن الإنسان يقوم بنفسه وَلِوحدِهِ Man Stands Alone » ، وأن الوجود صدفة كما يرى غابرييل مارسل . و « أن ليس للبشرية من مستقبل مشرق » . أو ذهبوا مع هايديغر في قوله : « إن الحياة

الإنسانية خالية من أي محتوى كريم ، وإنها باطلة ، لأنها منسوجة من القلق والعدم » ، أو ظنوا مع (كفكا) أن الوجود الإنساني يعادي نفسه ، أو ظنوا مع سارتر « أن الحرية كامنة في تصور الإنسان وعقله فقط ، وأن الإنسان يصبح حراً حين ينسلخ عن المجتمع ويكفر به ، ويستهين بالقيم ، وحين يرحل عن المجتمع والناس ، أو قالوا مع لينين : « ماذا يهمّ أن يعرف البشر طبيعة الاجتماع ما دام المهم أن نغيّر هذه الطبيعة »[1] .

والمرجح بل المؤكد الموثوق أنه على الإنسان أن يتعلم « الشكر » كي يتحول كل شيء في حياته ويكتسب معاني جديدة ، فحين يتعلم الإنسان أن يشكر الله يكتسب رؤية جديدة ويدرك مدركات تغاير نظراته المادية .

حين يتعلم الإنسان الشكر[2] أي شكر الله والناس ، يرى

---

(١) ﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ [البقرة : ٢٥٧/٢] .

(٢) ورد في حضارتنا العظيمة أن الشكر لله يتطلب الشكر لكل من يُحسن =

أن الأشياء ليست هبة الصدفة أو مجموعة هبات صنعت نفسها ، بل هي مسخَّرة ومطواعة سخرها الخالق للحياة وللمتصرف بها (وهو الإنسان) ، فهي توجد بالحق ، ويجب أن تستخدم بالحق ، ومن أجل أن تكون رحمة ونعمة لجميع العباد أياً كانوا ، أما الوجود الذي يحوي تلك الأشياء ويحيط بها فهو بدوره مظهر من مظاهر النِعَم ، نِعَم الله وما خلق . وإذا كانت الأشياء من أبسطها كالذرّة الصغيرة إلى أعظمها وأكبرها كالمجرّة والمجرات الكبيرة ، تتحرك طبقاً لقوانين دقيقة ومُحْكمة ، فإنها تعبر بانتظامها وإحكامها عن إرادة الحق ، إرادة الله . وأما البشر الذين تشكلوا بفعل الزمان والمكان ، فكانت منهم الشعوب والقبائل ، فإنهم قد جُعلوا كذلك لا ليختلفوا ويختلقوا أسباب العدوان ، والنكد والتجاهل وأساليب الغطرسة ، بل من أجل

= إلينا « من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ومن لم يشكر على القليل لم يشكر على الكثير » ، وهكذا فالمهم روحية الشكر ، ومعنى الشكر لا مجرد التلفظ به ، المهم أن نعلم أن ما نتمتع به ونلذ من صحة وعافية وأعضاء سليمة ، وأشياء نمتلكها هي بمثابة نِعَم ، وأن هذه النعم أوجدها الخالق .

أن يتعارفوا ويتآلفوا ، فالخلق كلهم عباد الله وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعباده .

إن الدرس العظيم الذي يمليه الله الحق على البشر يتلخص بما يأتي :
إله واحد ، خلق عالماً واحداً ، وإنسانية واحدة .

تربية الإيمان

إن الأطفال يتعلمون الإيمان كما يتعلمون سائر الفضائل بطريق ما يلقونه من ذويهم من تقبُّل وأُنس ورضى ، وما يتهيأ لهم من استقرار وطمأنينة عن طريق تذوق ذلك وممارسة طرق العبادة ، والأسرة هي الموكلة بذلك تدعمها المدرسة ووسائل التعليم والإعلام .

● وهنا نذكر الدور العظيم (الذي ذكرناه أكثر من مرة في حلقاتنا السابقة) حول الصحة النفسية ، وهو الرباط الزاخم بالعواطف والتقبُّل مفعماً بالرضى والأنس والاستقرار بين الأم والجنين .

● وإثر ولادة الطفل ودخوله في عالم الأسرة ينشأ الرباط الثاني معتمداً على الأم والأب معاً ، ومع توق الجنين وتشوقه الكبير إلى لقاء الأب ذلك اللقاء العذب الذي أظهره التنظير وكشف عنه العلم التجريبي[1] بشكل موثوق .

● والطفل حين يكبر يشهد أباه وهو يعامل الجميع بالحسنى ويتلطف معهم ، فيستخلص أو ينتقل إليه من أبيه استعدادات طيبة للإيمان والعمل الصالح .

● وتشرع تجارب الشكر تنمو في التعامل داخل الأسرة .

الأم مع أولادها ، الأم مع زوجها ، الإخوة يشكرون أبويهم ويشكرون الكبار ، والإخوة فيما بينهم يتبادلون التهاني والشكر كلما أسدى أحدهم العون لهم .. إلخ .

● وسيعرف كل فرد في الأسرة أن عمل المعروف ليس مجرد واجب أخلاقي ، وإنما هو عبادة ، بل لعله يكون من أبلغ

(١) انظر سيكولوجية الأمومة الفصول ٨ ـ ٩ ـ ١١ الجزء الثاني .

درجات العبادة ، نظراً إلى قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ [الليل : ٩٢/٥ ـ ٧] ، ولاحظ في هذه الآية أن كلمة (أعطى) سبقتْ كلمة (التقوى) ، ويُفهم من ذلك أن فعل العطاء مُقدم على التقوى ، وذلك على الرغم من أن التقوى من أمهات القيم العظمى في الإسلام .

● وحين نسأل علم النفس ونلقي عليه السؤال حول فعل العطاء ، نراه يجيبنا : « إن الطفل الإنساني ليس مجرد فعل يؤديه الإنسان ، وإنما هو بداية لأمور أخرى فأفعال الإنسان تساهم في صوغ شخصية الإنسان ، إن ما نصنعه يصنعنا ، وبتعبير آخر إن أفعال الإنسان جزء هام من شخصيته » .

● ويكتسب الفتى معنى السيادة في داخل الأسرة ، فالسيادة تقوم على العزة ، والعزة تحتاج لمن يقدم الثمن بوصفها من أغلى الأمور ، فلنرجع إلى قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : ٣٥/١٠] ، وواضح أن العزة التي تلازم معنى

الإيمان إنما تكون في التوجيه إلى الله تعالى بالكلِم الطيب ثم بالعمل الصالح ، فهذا هو ثمن العزة ، إنها مفاهيم ثلاثة متلازمة (العزة ، الكلام الطيب ، العمل الصالح) . ومن ناحية ثانية فإن السيادة تُكتسب بالصبر ، وهكذا فإن « الصائم المتطوع سيد نفسه إن شاء أكل وإن شاء أفطر » ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣/٢] .

● وهكذا يعتاد الفتى بتقدير قيم النِعَم ، في الصوم الذي يدربه على الامتناع .

● ويعتاد الفتى العزة والسيادة بأن يسمح للآخرين لتبلُغهم موجبات العزة والسيادة مثل : « إماطة الأذى عن الطريق » ، وفي « بر الوالدين » وتعود الابتسام ، وتبادل الأعطيات ، والتحية ، وحفظ حقوق الناس ، فكل هذا يكتسبه الفتى بطريق التذوق والسيطرة على النفس . سأل الخليفة المنصور أحد الفقهاء أن يصف له (الأحنف بن قيس) فأجاب الفقيه :

يمكنني أن أصفه لك بثلاث أو باثنين أو بواحدة ، قال الخليفة صفه في ثلاث :

أجاب الفقيه : لم يكن يحسد أحداً ، ولم يظلم أحداً ولم يمنع أحداً أن يبلغ حقه . قال الخليفة صفة باثنتين . أجاب الفقيه : كان يفعل الخير ويحبه ، قال : صفة بواحدة قال : ما شهدتُ في حياتي من هو أقوى منه وأشد سلطاناً على نفسه .

ومن هذه الطرفة يمكننا أن نفهم أن سلطان الأحنف على نفسه جعله يفعل الخير ويحبه ولا يعرف الحسد ولا يسلك طريق الظلم والتسلط على حقوق الناس ، فيتم له ذلك كله بضبطه أهواءه ونوازعه فما أذكى ذلك الفقيه .

الصحة النفسية وتقتضي أموراً كثيرة أهمها :

أولاً : يعلّمنا الإيمان وجوه الاستمتاع بالحياة الطيبة ، فالشاكر يتنعم بشكره مرات ومرات ، مرةً بالنعمة ، ومرة بتذكرها ، ومرة بالحديث عنها ثم بانتظار الأجر عليها ، ناهيك عن أن شكر المرء الناس على ما أسدوه إليه يقوي روابط الألفة

بين الناس ، وينقيها ويسمو بها ، فلنذكر قوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : ٧/١٤] ، وكما قالوا : إن الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود .

ثانياً : يعلمنا الإيمان أن نبتعد بأنفسنا عن الشكوى والجحود ، فالمرء الذي يحيا الشكر ويتذوقه يعلم أنه يعيش في ظل إله منعِم وأناس طيبين في معظمهم ، وحياة كريمة سخية ، ومثل هذا العلم جدير بأن يحمي صاحبه من أنواء الحياة وعواصفها ، وواضح أن تعوُّد الشكوى والجحود يفتح أبواب الحسد والعدوان .

صديقي الشاب وإذا كنت ممن يسأل علماء النفس حول نفسية الجاحدين (الذين لا يعرفون الشكر) فستعلم أنهم في الغالب عاجزون عن تقييم الناس والأشياء ، إنهم يحيون في نِعم ولكنهم لا يحسون بها إلا حين يفقدونها أو حين لا يكونون قادرين على تحصيلها ، ثم إن الجحود والظالم من الناس لا يدري عن جمال الصحبة إلا حين ينأى عنه الناس ، لا يدري أن له عينين إلا حين تُحس عيناه بوافدة المرض ... إلخ .

ثالثاً : يجعل الشكر صاحبه يتوثق حيث تكل قواه بعد قيامه بواجباته وتقديم الكلم الطيب والعمل الصالح ، أنه جدير بأن يستعين بقوة لا نهائية لا تنام ، تسعفه ذات لحظة بل في كل لحظة ، وأنه مجزى على صبره وتحملُه الناس والحياة ... فلا شيء يضيع حين يكون المرء مع الله ، وكل شيء معرض للضياع حين يكون الإنسان وحيداً ويعمل بنفسه أو يظن ويرى أنه يحيا بنفسه .

مثل هذا الإيمان قمين بأن يشعرنا أن خبرات الألم وضعف الشيخوخة والفشل والعجز والارتباك وفقدان الأعزاء أو الصحة ... مهما زادت أو طغت هذه الخبرات ، فإن المؤمن جدير بأن يستأنف من جديد ويستعيد القوة ليتابع النظر والنضال وفؤاده مفعم بالرضى والابتهاج ، ويشهد دوماً أن ما أفاء الله عليه من عظيم النِعم يساعده لا على غسيل شعوره من الألم وحسب بل وعلى الاستمتاع بكل شيء حتى الألم نفسه .

رابعاً : يعلّم الإيمان صاحبه ألا يخشى الفراغ ولا يرهبه أو يدفعه إلى الهروب من الحياة ، وما دام العلم ليس نتيجة صدفة ،

بل هو مخلوق كالإنسان ، فإن طاقات العلم وأشياءه مسخرة بكل ما فيها ذلول للإنسان ، وهكذا فإن العالم ليس معادياً للبشر[١] ، ولا هو غير آبه بهم بل هو يتابع بأمر الله قوانينه وحقائقه .

وإليك أيها الشاب نقطة هامة :

خامساً : يعلمنا الإيمان وشكره أن نسبغ على الآخرين الامتيازات الجميلة ، والخصال الطيبة التي تكونت بفضل الله في أنفسنا ، وأشرقت في حياتنا وآتت أُكُلَها وثمارها ، فنحن لسنا وحيدين ، لأن يد الله مع الجماعة ، وهو مع كل جماعة تكون جديرة بعبادة الله والإحسان جزاء الإحسان ، وفي خدمة الحق والحقيقة .

(١) يجنح الفكر الغربي إلى تصور العالم وكأنه معاد للإنسان ولذلك يحسُّ الغربيون إذا اكتشفوا ظاهرة أو قانوناً من القوانين ، أنهم انتصروا فقيّدوه واستولوا عليه ، كأن الإنسان يعيش في حياته محاطاً بحيوانات تتعداه وتتجاوزه في وسط غابات كثيفة مظلمة (أشرنا إلى هذا أكثر من مرة نعيده لأهميته) .

خاتمة الكتاب

صديقي ، أيها الشاب الغالي !!

بعد رحلتنا في عالمك ، عالم المراهقة والشباب يحلو لي أن ألتقي بك مجدداً ... قبل الفراق ، كي نتذاكر في بعض الأمور الأساسية ، فأقول :

تدعونا الصحة النفسية وتهيب بنا أن نوثق صلتنا بحياتنا الإنسانية نحن البشر .

وتهمنا الحياة الإنسانية من حيث إنها تتجاوز حياة الحيوان جوهرياً وبشكل كلي .

فإذا كانت حياة الحيوان وجوداً حياً ، فإن حياة الإنسان (وجود) (وقيم) (ومواقف) ، وتتميز هذه المميزات المذكورة في ثلاث مستويات :

١ ـ فهناك الحياة .

٢ ـ وهناك ضِعف الحياة .

٣ ـ وهناك ما هو أهم من الحياة :

١ ـ حياة الفرد وحده .

٢ ـ حياته مع ما حوله .

٣ ـ صلاته بما يتجاوز وجوده .

☆ ☆ ☆

حياة الإنسان الفرد تقوم على (المعرفة) .

وضِعف الحياة يقوم على (العرفان) .

وما هو أهم من الحياة يقوم على (التوجُه إلى الله والتقرب منه بالإخلاص على الدوام) .

أولاً ـ المعرفة والإنسان الفرد

(رحم الله امرءاً عرف نفسه وقَدْره) مقولة مشهورة ومأثورة .

وتكون معرفة الإنسان نفسه على إدراكه :

أ ـ مَن هو .

ب ـ وأين هو .

جـ ـ وماذا يفعل ؟...

فمن الإنسـان ؟ إنـه الكائن المكرَّم ﴿ ولقـد كرّمنـا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبـات ، وفضلنـاهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠/١٧] ، إن كل إنسان كان أو سيكون هو كائن أكرمـه الله أيـاً كان أو كان دينـه وعنصره ، وعلى كل واحد من أبنـاء آدم أن يعرف مـا أكرمـه مولاه بـه من خصائص تميزه عن غيره بـ (الإمكانات والقدرات والمهـارات) . فهـذا أقـل مـا يبتغي ، وأن يعمـل لتنميـة هـذه الخصـائص وتعهُدها . ومن هنا يختلف كل إنسان عن الآخرين .

وأن نجاح المرء يقتضي منه أمام الله والناس أن يتعرف على هذه الخصائص في وقت مبكر فيتعهـدهـا (وهـذا مـا يرجوه علم النفس) . وبغير هذه المعرفة والتعهـد اللائق لهـا تتوارى كرامـة الله لعباده ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلاَّ الذين آمنُوا وعملوا الصالحات ﴾[1] [التين : ٥/٩٥] .

---

(١) ﴿ فمن كان يرجو لقـاء ربـه فليعمل عملاً صـالحـاً ولا يشرك بعبـادة ربـه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠/١٨] .

أيها الشاب تأمل جيداً في هذا وافعل ما بدا لـك فهـذه هي حريتك .

ب ـ أما أين الإنسان فالجواب : إنّه يقيم في عالم وثيق الصلة بالإنسانية ، عالم جميل منظَّم خلقه الله تعالى ليكون إطاراً عظيماً ورائعاً وذلولاً ، وجعله زينة لجميع البشر (حتى العاصين الآبقين) ، وجعل الإنسان قائماً على عالمه ، وأتاح له أن يجد فيه كل ما يحتاجه من طاقات وآياتٍ ونعَم ورفاه .

ماذا يفعل الإنسان ؟ تتجلى أعمال الإنسان وتظهر داخل دائرتين اثنتين متباعدتين ، دائرة الخير ودائرة الشر ، وقد أتيحت للإنسان الحرية بأن تتجه أفعاله ضمن هذه الدائرة أو تلك ، ويكون الإنسان موفقاً ذا حظ عظيم حين يؤثر دائرة الخير ويسعى وينشط لخدمة الحياة وجميع الأحياء فينال الطمأنينة في ظل إلهٍ حكيم ﴿ أحسن كل شيء خَلَقه ﴾ [السجدة : ٧٧/٢٨] . ويحيا المرء سوياً بين الأسوياء حين يصدق في إرادته وأفعاله ، فهذه هي ميزاتك أيها الشاب ، وهذا

طموحك وتوافقك مع نفسك التي أكرمها الله والساعية إلى المكرمات ، ومع الآخرين أياً كانوا[١] .

ثانياً ـ ضعف الحياة

ويتمثل في حياة الإنسان مع آخرين يودهم ويودونه ، وأول هؤلاء الآخرين وأولاهم وأجدرهم ذوو الإنسان وأسرته ، فيحيا المرء معهم « بالعرفان » والعرفان اعتراف بالفضل والتقدير والإحسان ، وواضح أن الوالدين هما القطبان أو المحوران في كل أسرة ، والعاقل اللبيب يعلم ويدرك أن والديه يستحقان البر والإحسان فيحسن إليهما ، ويكسب رضاهما كما أراد الله ، والولد البار بأبويه يتدرب (نفسياً واجتماعياً) منذ الطفولة على حسن التعامل مع الآخرين خارج الأسرة وداخلها ، والانضباط مع القوانين والأخلاق الكريمة ، فما رأيتُ إنساناً نجح وتألق بين الناس إلا وكان من الذين أحسنوا إلى

(١) ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة : ٦٠/٨] ، المقسطون هم العادلون .

أبويهم ، وما رأيت أفضل من إكرام الأبوين من أجل تحقيق إكرام الناس بعضهم لبعض ، والبعد عن الصراعات والمنازعات معهم ، أظنك أيها الصديق توافق على هذا وبوسعك أن تلاحظ جميع مَن حولك كي تتثبت من أقوالي .

ثالثاً ـ ما هو أهم من الحياة

تظل حياة الإنسان على الأرض محدودة بالزمان ، واهنة تجاه المفاجآت ، مهددة في كل لحظة ، وهي لا تُشبع (إلا البسطاء والغافلين والخاضعين لسلطان المخدرات)[1] وما إليها ، فأدى هذا كله إلى قلق الإنسان وحيرته واغترابه .

ومن هنا فقد قامت الديانات السماوية كلها بمواجهة هذا

(١) الذين تسيطر عليهم وتستعبدهم أوهام الإشباع وهي في الحق مخدرات تنقل الإنسان الذي يتعاطاها إلى الأوهام الكاذبة في تحصيل الطمأنينة ، قال تعالى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ [يونس : ١٠/٧] .

الأمر (الـذي يتخطى ويتجاوز عالم المعرفة النفسية والاجتماعية) فمنحته ما ينبغي له من علاج يقوم على التوكل (لا التواكل) على الخالق ، والتسليم لمشيئة الله (بضبط الأهواء وتنمية العمل الصالح والقيام بخدمة الآخرين وإعمار هذه الأرض ابتغاء مرضاة الله) ، فهذا هو الموقف الأسلم الذي تبناه الإسلام بكل وضوح .

برامج العمل : إن التوجُه إلى الله والتقرب منه يفضي كلاهما إلى الإخلاص ، على النحو التالي :

أ ـ حين تزدهر **المعرفة** ويُحسن الإنسان التعامل مع نفسه على هدى الله .

ب ـ وتثمر هذه المواقف المزدهرة فتفضي إلى **العرفان** ، الطريق الأفضل لخدمة الآخرين .

جـ ـ وحين يتآزر الموقفان (المعرفة والعرفان) استجابة لأمر الله ، يتوجه الإنسان **بالبصيرة** ويتبلغ بها أو تتوجه هي إليه ، إيماناً وسلوكاً ، فيكسب **الهدى** ويسلك طريق الرشاد ،

ويتحقق بالإخلاص[١] سراً وعلانية ، واعتزازاً بما هيـأه الله لـه ، وبذلك يدنو من التقوى .

د ـ ويعي رجـل التقـوى أمره فيـذكر المنعم والنعمـة ، ويشكر[٢] الخالق والخليقة .

هـ ـ يفرح بما تهيأ لـه بفضل الله ورحمتـه ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : ٥٨/١٠] .

و ـ وينـال الطمأنينـة (التي فقـدهـا الإنسـان منـذ هبوط أبـويـه آدم وحـواء من الجنـة[٣] فتحقـق منهـا من جـديـد وعلى الأرض .

☆ ☆ ☆

وإذا استعرنا لغة علم النفس المعاصر قلنا :

إن هـذا البرنـامـج (البصيرة ـ الهـدى ـ التقـوى ـ الفرح والطمأنينة) ما هو إلا تغطية لما هو أهم من الحياة .

---

(١) ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ [محمد : ١٧/٤٧] .

(٢) ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [البقرة : ١٥٢/٢] .

(٣) ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : ٢٨/١٣] .

فلنستفد معاً من مقالةٍ أُثرت عن (ابن القيم) :

« إن في القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله » .

« وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته » .

« وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له » .

« ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تَسد تلك الفاقة أبداً » .

صديقي أيها الشاب وداعاً وليحفظك الله .

THE FAMILY AND THE SOCIETY
PSYCHOLOGICAL HYGIENIC

٥

Psychological Hygienic FOR TEENAGERS AND YOUTH

Al-Ṣiḥḥah al-Nafsīyah li-al-Murāhiqīn wa-al-Shabāb

by: ʻAdnān al-Subayʻī

لقد حرصنا أن نتوجه في كتابنا هذا صوب هدفين اثنين، نخاطب في الأول المراهقين أنفسهم، ونخاطب في الثاني آباءهم وأمهاتهم.

أما المراهقون: فقد تركز اهتمامنا بهم كي نجعلهم يواجهون قضيتهم بأنفسهم، وكي يساعدوا أنفسهم بأنفسهم فيزداد شعورهم بالذات ويتعرفوا إلى المشكلات التي تجابههم ويتمكنوا من فهم أنفسهم فهماً مباشراً وينتقلوا من فهم أنفسهم إلى فهم العالم.

وأما الآباء والأمهات: فقد حرصنا على أن نبين لهم أن أبناءهم المراهقين يقفون على أبواب الرجولة أو الأنوثة، وهذا يجعلهم يحتاجون إلى من يفهمهم ويوفر لهم مزيداً من العون والتشجيع والتأهيل للحياة المنتجة الناجحة.

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-559-6
9 781575 475592